الفصل الرابع

التجارة العالمية إبان الفترة ١٥٠٠–١٦٥٠

تجارة العالم القديم وفضة العالم الجديد

WORLD TRADE 1500-1650:
OLD WORLD TRADE AND NEW WOLRD SILVER

أعلن آدم سميث في كتابه العظيم "بالصراحة الاسكتلندية الفجة"، على حد وصف إليوت Elliott، أن "اكتشاف أمريكا وطريق رأس الرجاء الصالح إلى جزر الهند الشرقية هما أعظم وأهم حدثين سُجِلا في تاريخ البشرية"[١]. قد يكون من الموافق لروح عصرنا أن نشجب هذه الرؤية لكوْنها مثالاً مريعاً آخر للإثم الأكاديمي القاتل المسمى التمركز حول أوروبا Eurocentrism. لكن لا مجال لإنكار أن الرحلات التي يشير إليها سميث كانت إحدى نقاط التحول الكبرى في التاريخ العالمي، حيث وضعت — وللأبد – حداً لعزلة الأمريكتين عن العالم القديم في الكتلة الأفريقية–الأوراسية. واكتملت رحلات كولومبس ودا غاما إبان العقد الأخير من القرن الخامس عشر بطواف ماجلان البحري حول الكرة الأرضية في العام ١٥٢١. وبعد خمسين عاماً، أسس الإسبان مدينة مانيلا. وكان وصول أول غليون[١] إلى مانيلا محملاً بالفضة القادمة من أكابولكو[٢] بمثابة "البداية للتجارة

(١) الغليون galleon سفينة شراعية كبيرة، تجارية وحربية [المترجم].

العالمية" بالمعنى الحرفي للعبارة، كما أشار فلين وجيرالديز Flynn and Giraldez لأنه في ذلك الوقت فقط أصبحت السلع تعبر حول الكرة الأرضية كلها ويتم تبادلها عبر المسافات الشاسعة للمحيطين الأطلسي والهادي[٢].

تثير هذه الأحداث الفارقة التساؤلات المتواترة حول الأسباب التي جعلت دول شبه الجزيرة الأيبيرية – البرتغال وقشتالة وأراغون – وليس الدول المدينية الإيطالية الأكثر تقدماً من الناحية التجارية، أو الفلمنكيين، أو القوة الفرنسية الصاعدة، هي التي تصدّرت هذه المغامرات التي كانت فاتحة لعصر جديد. فما هي الدوافع التي حثت الدول الأيبيرية لتحمل الأخطار والنفقات التي انطوت عليها هذه الرحلات إلى المجهول؟ وماذا كانت نتائج اكتشاف العالم الجديد على كل منطقة من مناطق العالم القديم؟ وما تأثير اكتشاف الفضة الأمريكية على الاقتصاد الدولي؟ وما الأسباب التي جعلت القوى الأيبيرية تترك مكانها في العالم الجديد لبريطانيا والهولنديين بالدرجة الأولى؟ وهل كان لظهور تجارة العبيد بين أفريقيا والعالم الجديد ارتباط سببي بظهور الثورة الصناعية إبان القرن الثامن عشر؟ يتناول هذا الفصل والفصول واللاحقة هذه القضايا وما يتربط بها.

تميّزت القرون الثلاثة التالية بسمة أساسية، هي الحرب المتواصلة، ليس بين القوى الأوروبية على القارة الأوروبية نفسها وحسب، بل أيضاً خارجها، وليس مع إحداها الأخرى فقط، بل أيضاً ضد الشعوب الأصلية والدول والإمبراطوريات التي وجدوها هناك، وهو موضوع سنتناوله بالضرورة. عكست هذه النزاعات عدداً من السمات الجديدة للحرب في العصر الحديث المبكر، وُصِفت بأنها "ثورة عسكرية"[٣]. وقد استخدم مفهوم الثورة لوصف مجموعة معقدة ومتشابكة من التطورات في الإستراتيجية والتكتيكات والتجهيزات والأسلحة والتحصينات والتجنيد والتدريب وتنظيم الجيوش والأساطيل. وقد أدى ذلك– بدوره– إلى زيادة كبيرة في حجم القوات

(٢) أكابولكو Acapulco مدينة وميناء بحري رئيس في ولاية غوريرو Guerrero على ساحل الهادي المكسيكي [المترجم].

(٣) يوجد عدد من أهم المقالات حول هذا الموضوع في كتاب روجرز (Rogers, 1995).

المسلحة، سواء من الناحية المطلقة أو نسبة إلى إجمالي الموارد البشرية والمادية المتاحة، وإلى مزيد من الانضباط والتنسيق بين الوحدات والأفرع المختلفة للقوات المسلحة، وإلى زيادة المهنية بين هيئة الضباط على كل المستويات. وتتحدد الفترة الحاسمة التي حدثت فيها الثورة إبان القرن الممتد من العام ١٥٦٠ إلى العام ١٦٦٠ الذي شهد الصياغة الأصلية للثورة، لكن هذين التاريخين دفعهما البعض زمنياً إلى الخلف إلى القرن الرابع عشر، وإلى الأمام إلى منعطف القرن التاسع عشر.

بيد أن الزيادة في حجم القوات المسلحة وكلفتها ما كان لهما أن يحدثا لولا نمو السكان والثروة في دول أوروبا إبان العصر الحديث المبكر، وتنامي قدرة هذه الدول على الوصول إلى تلك الثروة. وقد انعكست التكاليف العسكرية المتزايدة أيضاً في الانخفاض الكبير في عدد الوحدات السياسية المستقلة على الأراضي الأوروبية[٤] وانعكس خارجها في إخضاع أوروبا لنحو ٣٥٪ من سطح الكوكب بحلول العام ١٨٠٠[٥]. فكان الفاتحون الإسبان والبرتغاليون في العالم الجديد، والبرتغاليون والهولنديون في المحيط الهندي وجنوب شرق آسيا، وجيوش السباهية[٤] لشركتي الهند الشرقية الإنجليزية والفرنسية جميعاً تجليات بطريقة أو بأخرى "للميّزة النسبية في العنف" التي منحتها الثورة العسكرية للقوى الأوروبية إبان العصر الحديث المبكر. على أننا سنؤكد أيضاً على حقيقة أن التقنيات العسكرية الجديدة صُدّرت إلى بقية العالم، ما أدى إلى عمليات متماثلة من المركزية السياسية، وكذلك مشكلات "عسكرية- مالية " مماثلة، إذ حاولت الدول أن تبحث عن دخول لتلبية نفقاتها الدفاعية المتزايدة[٦]. وكان من طرق تلبية هذه النفقات عوائد النهب وريوع الاحتكار، واستغلال طبقة الفلاحين، والتجديدات المالية. وقد تقرر المستقبل الاقتصادي والسياسي للدول بالدرجة الأولى، وفي بعض الحالات استمرار بقائها نفسه، بمدى نجاحها في إدارة هذه التحديات.

---

(٤) السباهية sepoy هم الجنود أو القوات الهندية المجندة في الجيش الإنجليزي، وتوسعاً في الجيوش الغربية عموماً [المترجم].

البرتغال والمحيطين الأطلسي والهندي

"كان البرتغاليون من أوائل الأوروبيين الذين فهموا أن المحيط ليس حداً أو قيداً، بل ممراً مائياً عالمياً يوّحد البشرية"، هكذا قال لورد أكتون Lord Acton في المحاضرة الثانية من "محاضراته حول التاريخ الحديث" حول "العالم الجديد"[٧]. وقد أرجع أكتون هذا السبق إلى تطويق إسبانيا للبرتغال، ما حرَم الأخيرة من أي متنفس لطاقات نبلائها المتململين وطموحاتهم غير المحيط الأطلسي. كانت المملكة البرتغالية ذاتها أحد نتاجات الروح الصليبية الجهادية لعملية الاسترداد(٥)، وكانت العاصمة لشبونة قد انتزعها من الأندلسيين في العام ١١٤٧ مجموعة من الصليبيين الإنجليز والفلمنكيين والألمان، وهم في طريقهم إلى الأراضي المقدسة، نيابة عن الحاكم المؤسس ألفونسو هنريك Afonso Henriques. وقد بقيت هذه الروح متقدة في النزاعات اللاحقة في شبه الجزيرة الأيبيرية، ولاحقاً أيضاً في شمال أفريقيا. وجاءت أعلى نقطة في القوة البرتغالية في هذه الحروب مع انتزاعهم سبتة من الدولة المرينية(٦) البربرية في العام ١٤١٥، بقيادة جواو الأول Joao I مؤسس سلالة أفيس Avis الحاكمة. وبعد الاستيلاء على سبتة، صدّ البرتغاليون قوة مشتركة من المرينيين والنصريين(٧) حكام غرناطة في العام ١٤١٩. أعطى هذا النصر

---

(٥) حول مفهوم "استرداد إسبانيا" في مقابل مفهوم "سقوط الأندلس"، راجع حاشية سابقة للمترجم [المترجم].

(٦) المرينيون، أو بنو مرين، سلالة بربرية تنحدر من قبيلة زناتة، حكمت المغرب الأندلس من العام ١٢٤٤ إلى العام ١٤٦٥، أسسها الأخوان أبو يحيى عبدالحق (١٢٤٤- ١٢٥٨) ثم أبو يوسف (١٢٥٨- ١٢٨٦) على حساب دولة الموحدين التي قتِل آخر أمرائها في العام ١٢٦٩. خاضت عدة حروب على أرض الأندلس في عهد أبو يعقوب يوسف (١٢٨٦- ١٣٠٧)، وتوسعت في الجزائر وتونس. وتهاوت دولة المرينيين سريعاً، ووقعت تحت وصاية أقربائهم من الوطاسيين، إلى أن ثار عليهم سكان فاس، وانتقل حكم المغرب إلى الوطاسيين [المترجم].

(٧) النصريون، أو بنو نصر أو بنو الأحمر، آخر سلالة عربية حكمت غرناطة (١٢٣٢- ١٤٩٢) وآخر الحكام العرب والمسلمين في الأندلس كلها. أسس دولتهم محمد بن نصر بن الاحمر (١٢٣٢- ١٢٧٣) الذي أعلن نفسه في العام ١٢٣٢ سلطاناً على أراغون واستولى بعدها على العديد من المناطق والمدن جنوب الأندلس. وبعد سقوط كل ممالك المسلمين في الأندلس، عاشت مملكة غرناطة عمرها الطويل بالتبعية لمملكة قشتالة ودفع الجزية لها واللعب على الخلافات بين الممالك النصرانية، إلى أن قرر فيرناند الأراغوني وإيزابيلا القشتالية أن يكملا عملية الاسترداد ويستوليا على مملكة غرناطة. وبعد حرب دامت

مكانة كبيرة للدولة الجديدة في العالم المسيحي، ووفر لها أيضاً قاعدة ومنصة لمزيد من العمليات العسكرية والتجارية في المغرب وما ورائه.

أعطى ضم سبتة شهرة ومكانة كبيرة للابن الخامس لملك البرتغال جواو الأول من الملكة الإنجليزية فيليبا اللانكسترية Philippa of Lancaster، ابن الحادية والعشرين حينذاك، المعروف لأجيال تلاميذ المدارس في العالم الناطق بالإنجليزية باسم "الأمير هنري الملاح". وقد كوفئ على جهوده بتعيينه حاكماً للغرب(٨) وقائداً لأخوية فرسان المسيح، واستخدم الأمير موارد هذه المناصب وغيرها من الامتيازات التي مُنِحت له لتجهيز سلسلة من الرحلات إلى جزر المحيط الأطلسي والساحل الغربي لأفريقيا. وكان الإغراء الفوري الذي لا يقاوم بالنسبة لهنري يتمثل في "التجارة الذهبية للمغاربة"، أي محاولة الوصول البحري إلى مصدر الذهب في بلاد السودان[٨](٩). وكان ثمة دافع آخر تمثل في الإغارة على المستوطنات الساحلية لسبي العبيد أو المسلمين طلباً للفدية لإطلاق سراحهم[٩]. ويضيف رسل Russell إلى هذه الدوافع رغبة هنري في إثبات إمكانية القيام بحملة صليبية ضد الإسلام "على السواحل الأطلسية لأفريقيا بالصحراء الكبرى وجنوبها بالفعالية والتأثير نفسيهما للحملات الصليبية على عالم البحر الأبيض المتوسط"[١٠].

ويبدو أن الدافع للتوسع البرتغالي إبان القرن الخامس عشر كان مزيجاً معقداً من الحماسة الدينية والإستراتيجية الجيوسياسية الكبرى والربح التجاري، إذ كان الإسلام الخصم الرئيس في هذه المجالات جميعها(١٠). ويذهب بوكسر Boxer إلى أن "الدوافع

عشر سنوات، وحصار غرناطة لأكثر من عام، وقّع آخر سلاطين بني الأحمر أبو عبدالله محمد الثاني عشر اتفاقية استسلام المملكة في العام ١٤٩٢ [المترجم].

(٨) الغرب Algarve منطقة في أقصى جنوب البرتغال فتحها العرب في أوائل القرن الثامن واستردتها مملكة البرتغال في منتصف القرن الثالث عشر، واسمها الأوروبي مشتق من كلمة "الغرب" العربية [المترجم].

(٩) بلاد السودان، أو "أرض السود"، كما عرفها المغاربة والأيبيريون في العصور الوسطى، تقابل منطقة غانا وجوارها بغرب أفريقيا [المترجم].

(١٠) يبدو أن رحلات الاستكشاف جميعها، بداية من هنري الملاح وفاسكو دا غاما، حتى كريستوفر كولولومبس كانت موجهة بالدرجة الأولى ضد المسلمين، إما للالتفاف حول حصارهم لأوروبا بالوصول إلى جزر الهند الشرقية بعيداً عن الأراضي الإسلامية، أو لتوجيه حملة صليبية على الأراضي

الأربعة الأساسية التي ألهمت القادة البرتغاليين... كانت بالترتيب الزمني وإن كانت متداخلة وبدرجات متفاوتة: (١) الحماسة الصليبية ضد المسلمين، (٢) الرغبة في ذهب غينيا، (٣) البحث عن الكاهن يوحنا(١١)، (٤) البحث عن التوابل الشرقية"[١١]. وكان التنافس السياسي مع قشتالة دافعاً آخَر مهماً لهذه الحملات[١٢]. في البداية، كانت التجارة والنهب في أفريقيا وحولها، بما في ذلك الذهب والعبيد والسلع الأخرى، الهدف الاقتصادي الأساسي، لكن مع نهاية القرن الخامس عشر لاحت فرصة أبعد مكانياً وأكثر إغراءً في الوقت عينه، وهي إمكانية تطويق البندقية وسلاطين المماليك بمصر وكسر احتكارهم المشترك لتجارة التوابل بالوصول مباشرة إلى مصادرها. ومن منظور الإستراتيجية الكبرى، يمكن النظر إلى المغامرات البحرية باعتبارها تطويق للعالم الإسلامي، أي تطويق للمماليك والعثمانيين، هرباً من مأزق المواجهة المتواصلة على البر في منطقة البلقان وفي البحر على صفحة البحر الأبيض المتوسط. وكما أشرنا قبل قليل، فقد انجدلت مع هذه الاعتبارات العقلانية بعيدة المدى أسطورة الكاهن يوحنا، ذلك الحاكم المسيحي الأسطوري لمملكة غير معلومة في الشرق، الذي كان من الممكن أن يكون حليفاً ثميناً للأوروبيين في المعركة ضد المسلمين، إذا ما تمكّنوا من الوصول إلى مملكته. وتذهب قصة متواترة إلى أن سفن فاسكو دا غاما حين وصلت كاليكوت وسألهم السكان الأهليون "ما الذي أتى بكم إلى هنا؟" كانت إجابتهم: "لقد جئنا بحثاً عن المسيحيين والتوابل"[13].

ومع أن هذه الأهداف السامية ربما ألهمت الجهود البرتغالية في أوقات مختلفة، فلا شك في أن كثيراً من العمليات التي نفذها الأمير البرتغالي كانت في حقيقتها

الإسلامية بعيداً عن قلب العالم الإسلامي. حتى أن بحث كولومبس عن طريق جديد إلى جزر الهند الشرقية قُصِد به جزئياً توجيه هجوم مزدوج على الإسلام من الشرق والغرب. ولذلك اصطحب كولومبس معه في رحلته التي "تعثر" فيها بأمريكا الجنوبية، مترجماً يهودياً يتحدث اللغة العربية، حتى أن هذا المترجم بدأ في التحدث باللغة العربية مع السكان الأصليين المشدوهين في كوبا، اعتقاداً منه ومن كولومبس بأنهما نزلا على أرض إسلامية. وفي رسالته إلى فيردناند وإيزابيلا التي كتبها في العام ١٤٩٣، وعد كولومبس بأنه "في خلال سبعة أعوام من اليوم سيمكنني أن أزود جلالتكم بخمسة آلاف فارس وخمسين ألف جندي مشاة للحرب وغزو أورشليم الذي من أجله بدأنا هذا العمل" [المترجم].

(١١) راجع حاشية سابقة للمترجم حول الكاهن يوحنا Prester John [المترجم].

دنيوية، بل قذرة أيضاً، حتى بمعايير ذلك الزمان. كان من أبرز هذه الأعمال بدء تجارة العبيد المتنامية، حيث كان الأفارقة يباعون في أوروبا كخدم منزليين، وكان أبناء جزر الكناري[١٢] يرسلون إلى جزر ماديرا للعمل في مزارع السكر التي أنشئت برأسمال جنوي بالدرجة الأولى. وقد منح البابا نيقولاس الخامس الأمير هنري حق احتكار العمل في هذه التجارة والتربح منها. وبعد موت هنري في العام ١٤٦٠، كانت جزر الرأس الأخضر[١٣] المكتشفة حديثاً مخصصة لمزارع السكر المعتمدة على العمال العبيد الأفارقة المستوردين، وكانت بذلك نموذجاً ومثالاً سرعان ما احتذي به في الكاريبي. وكان مكتشف ومطور هذه الجزر هو الجنوي أنطونيو دا نولي Antonio da Noli الذي حصل على الإذن برحلته من هنري الملاح، ما يجعل الأخير بمعنى من المعاني راعي ومؤسس العبودية عبر المحيط الأطلسي، في أبشع صورها.

وفي العام ١٤٦٨، مُنِح التاجر اللشبوني فيرناو غوميث Fernao Gomes احتكاراً للتجارة مع أفريقيا لمدة خمسة أعوام بشرط أن يوسع استكشاف الساحل بمئة فرسخ إلى الجنوب (أكثر قليلاً من ثلاثمئة ميل) سنوياً. وأوفى فيرناو بهذا الشرط وزاد عليه، حيث تجاوز الأراضي المعروفة باسم ساحل العاج (كوت ديفوار) وساحل الذهب (غانا) وساحل العبيد (توجو وداهومي). وفي العام ١٤٧٤، تولى أحد أبناء ملك البرتغال دوم جواو، ابن أخي هنري الملاح الذي اعتلى العرش في العام ١٤٨١ باسم جواو الثاني، المسؤولية عن استكشاف ما وراء البحار. ويذهب أوليفيرا ماركيث Oliveira Marques إلى أن هذا الدوم جواو، وليس عمه الملاح، هو الذي يجب اعتباره المهندس الحقيقي للإمبراطورية البرتغالية المستقبلية، إذ كان هدفه الواضح والصارم هو الوصول إلى الهند عن طريق الإبحار حول أقصى الطرف الجنوبي للقارة الأفريقية[١٤]. قاد دوم جواو رحلتين بحريتين بارزتين إبان العقد التاسع من القرن الخامس عشر، تجاوزتا فم نهر الكونغو وما يعرف الآن بأنغولا. وفي العام ١٤٨٨، بلغ البرتغاليون

(١٢) جزر الكناري Canary أرخبيل من الجزر التابعة لإسبانيا يقع قبالة سواحل المغرب والصحراء الغربية على بعد مئة كيلومتر [المترجم].

(١٣) جزر الرأس الأخضر Cape Verde أرخبيل يضم عشرة جزر في الأطلسي الأوسط، يبعد عن ساحل أفريقيا الغربية بثلاثمئة وخمسين ميلاً، تسمى حالياً جمهورية الرأس الأخضر [المترجم].

مَعْلَماً أساسياً، حين اكتشف بارتلوميو دياز Bartolemeu Dias الرأس الجنوبي لأفريقيا ودار حول ما سُمي عن جدارة "رأس الرجاء الصالح"[١٤]. وبعد ذلك، أصبح الوصول إلى جائزة الهند مسألة وقت. لكن ذلك تأخر بسبب موت جواو الثاني في العام ١٤٩٥ واندلاع نزاعات حزبية في البلاط، إلى أن غادرت رحلة فاسكو دا غاما التاريخية لشبونة أخيراً في العام ١٤٩٧ برعاية الملك الجديد دوم مانويل الأول Manuel I المعروف باسم "المحظوظ"، ابن عم سلفه الشهير — الملاح – ولم يكن مانويل يقل عن الملاح طاقة وحماساً للاستكشاف وبناء الإمبراطورية.

يتضح الإدراك الإستراتيجي لدى جواو الثاني جلياً في أنه في العام نفسه الذي غادر فيه دياز على رأس رحلته التي دارت حول رأس الرجاء الصالح– العام ١٤٨٧– أرسل براً إلى مصر وشبه الجزيرة العربية بعثة استخبارية "سرية". فقام جاسوسان متنكران في هيئة تجار بزيارة القاهرة والإسكندرية وعدن. ويبدو أن أحد الجاسوسين اختفى من التاريخ، لكن الجاسوس الآخر المدعو بيرو دي كوفيلا Pero da Covilha الذي كان يتحدث اللغة العربية، شقّ طريقه في سفينة عربية إلى ساحل مالابار الهندي، وهناك حصل على معلومات ثمينة حول الموانئ الكبرى، ومنها كاليكوت. ثم ذهب إلى مملكة إثيوبيا المسيحية، ولعل ذلك هو السبب وراء أسطورة الكاهن يوحنا. واستقر دا كوفيلا في إثيوبيا التي عينه إمبراطورها إكسندر Eskender حاكم منطقة ومنعه من مغادرة البلاد، لكن بعد أن سلم تقريراً مفصلاً حول الموقف السياسي والتجاري في المحيط الهندي الغربي إلى مبعوث يهودي أُرْسِل من لشبونة. ربما كانت هذه المعلومات متاحة لبعثة دا غاما، ولذلك تكوّنت لدى دا غاما فكرة جيدة عما ينتظره بعد أن دار حول رأس الرجاء الصالح وشقّ طريقه على طول الساحل الشرقي لأفريقيا.

قد يكون من المفيد عند هذه النقطة أن نتناول التقنية الملاحية التي كانت الأساس

---

(١٤) كما أن الحدث التاريخي الواحد يثير مشاعر متناقضة لدى الشعوب والثقافات المختلفة، مثل استيلاء ملوك أيبيريا النصارى على ممالك المسلمين في الأندلس الذي يسموه على الضفة الشمالية للبحر الأبيض المتوسط "استرداد" ونسميه نحن على الضفة الجنوبية والشرقية للبحر نفسه "سقوط الأندلس"، كذلك أطلق المسلمون على هذا الطريق اسم "رأس العواصف" أو "رأس العواقب"، في المقام الأول بسبب الأضرار التي ألحقها باقتصاد الدول الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط [المترجم].

لهذه الرحلات البرتغالية. كانت الملاحة في البحر الأبيض المتوسط والمياه الساحلية لأوروبا الشمالية والغربية قد تقدمت بفضل قرص البوصلة وخطوط البوصلة على خرائط بورتولان(١٥) التي كانت تحدد المسارات بين نقاط محددة ومواقع معلومة. وكانت رحلات المسافات الطويلة عبر البحار المفتوحة إلى أماكن غير معلومة تتطلب المعرفة العلمية بالفلك والجغرافيا لإنجازها بنجاح، وهنا لعبت حركة إحياء العلم الكلاسيكي التي حدثت في عصر النهضة دوراً لا غنى عنه، وهي عملية توسَطها في الغالب علماء يهود ومسلمون. وقد شجع جواو الثاني البحث في الموضوعات ذات الصلة، مثل طرق حساب خطوط العرض بملاحظة ارتفاع الشمس عند الظهيرة. وكان صناع الخرائط يعتمدون على معرفة الرحالة الأوروبيين إلى الشرق، من ماركو بولو إلى بندقي آخر يدعى نيكولو دي كونتي Niccolo dei Conti قضى الأعوام من ١٤١٩ إلى ١٤٤٤ في التنقل في الشرق الأوسط والهند وجنوب شرق آسيا. تسلح دا غاما بآخر ما توصل إليه عصره في المعرفة الملاحية، فانحرف غرباً في المحيط الأطلسي لتفادي التيارات وسكون الرياح في خليج غينيا وللاستفادة من الرياح التجارية قبل أن ينعطف شرقاً، ليصل بدقة إلى اليابسة على الساحل الجنوبي الغربي لأفريقيا قبل أن يدور حول رأس الرجاء الصالح.

ما كان لهذه الرحلة البحرية أن تحدث بالتأكيد لولا التقدم الملحوظ الذي حدث في تقنيات بناء السفن الأوروبية في بداية القرن الخامس عشر. يذكر باري Parry الذي نعتمد على روايته فيما يلي[١٥]، أن تصميم سفن البحر الأبيض المتوسط في هذه الفترة تأثر بمجموعتين بعيدتي المدى من التأثيرات الخارجية. كان من التجديدات الأولى المهمة التي ظهرت قبل عدة قرون في أعقاب الفتوحات العربية تبني الشراع العربي المثلث الذي يمتد من مقدمة السفينة إلى مؤخرتها، الذي كان أكثر مرونة بكثير فيما يتعلق باتجاه الرياح من الأشرعة الرومانية المربعة القديمة. فلم يكن الشراع الأخير يستطيع أن يتقدم ضد رياح مباشرة، ولم يكن قابلاً للتحريك بكفاءة. وفي المقابل، كانت السفن

(١٥) خرائط بورتولان أو الرّق portolan charts أداة جغرافية مبكرة ظهرت إبان القرن الثالث عشر في إسبانيا والبرتغال كانت توضح الموانئ وطرق التجارة البحرية في البحر الأبيض المتوسط [المترجم].

ذات الأشرعة المربعة يمكن أن تكون أكبر كثيراً من السفن ذات الأشرعة المثلثة التي كانت صغيرة جداً على رحلات المسافات الطويلة. وجاء التأثير الخارجي الثاني من شمال غرب أوروبا التي احتفظت سفنها بالأشرعة المربعة، فيما حسّنت تصميمها مقارنة بالأشرعة الرومانية الأصلية. وقد دخلت هذه السفن إلى البحر الأبيض المتوسط بعد الحملات الصليبية وأصبحت الشكل القياسي لنقل الحمولات الكبيرة. وشهد القرن الخامس عشر انفجاراً في التجديد، جمع أفضل العناصر من نوعي التقاليد كليهما، مثل إضافة صواري إضافية ذات أشرعة مثلثة إلى سفن ذات أشرعة مربعة. وظهر "العديد من الأنواع الهجين"[١٦]، كان من أهمهما اثنان: سفينة القرقور carrack الضخمة ذات الثلاثة صواري التي كانت تحمل حتى ستمئة طن أو أكثر، وصواريها مربعة، ومزودة أيضاً بأشرعة مثلثة، وسفينة الكارافيل caravel الشهيرة، وهي سفينة ذات أشرعة مثلثة كانت تُزوّد أيضاً بسارية مربعة أو اثنتين. وكان هناك أيضاً عديد من السفن المتوسطة، وكان المستكشفون يستخدمون عادة "أساطيل متوازنة- كما فعلت أساطيل فاسكو دا غاما وكابرال - كانت تضم واحدة أو اثنتين من سفن الكارافيل التي كانوا يستخدمونها لنقل الرسائل واستطلاع الساحل وغيرها من الأعمال الصغيرة المختلفة التي أخذ أمراء البحر لاحقاً يعطونها للفرقاطات"[١٧]. وهذه السفن التي ظهرت "من خلال عملية التجريب والتغيير النشطة" كان لها الفضل في ظهور ما يسميه باري "عصر الاستكشاف".

وفي رحلة دا غاما، كانت السفينتان الرئيستان، وهما البارجة ساو غابريل Sao Gabriel وساو رافائيل Sao Rafael، من الحجم المتوسط، فيما كانت السفينة الثالثة سفينة إسناد تُدعى بيريو Berrio من نوع الكارافيل سعة خمسين طناً. وفي الرحلة الخارجية، اصطحبوا بحاراً مسلماً محلياً من ماليندي على ساحل ما يُعرف حالياً بكينيا ليساعدهم في العبور النهائي إلى كاليكوت. يقال إن هذا البحار هو أحمد بن ماجد العُماني الشهير مؤلف أحد الكتب العربية الأساسية حول الملاحة، لكن سوبراهمانيام Subrahmanyam يدفع على نحو مقنع باستحالة أن يكون هذا البحار هو تلك الشخصية البارزة، وإنما مجرد بحار من الغوجاراتيين. لكن التحديد الدقيق غير ممكن ابتداء، لأنه

اعتمد على تزامن أوبرالي بين شخصيتين بطوليتين من عالمين مختلفين كلياً، تصادف أن التقيا في ميناء بشرق أفريقيا في اللحظة التاريخية الصحيحة.

كانت كاليكوت التي نزلوا عليها في مايو من العام ١٤٩٨ الميناء الرئيس على ساحل مالابار ومحطة تجارية كبيرة. وكان حاكمها هندوسياً يحمل لقب سامودري راجا Samudri Raja، بمعنى ملك البحر، وهو الاسم الذي حرفه البرتغاليون إلى زامورين Zamorin الذي عُرِف به هؤلاء الحكام في معظم الروايات الغربية. كانت غالبية التجارة في أيدي التجار المسلمين، سواء من الشرق الأوسط أو الغوجارات والموبلا الأهليين، الذين كانوا يتمتعون بحرية كاملة للعبادة، طالما أنهم كانوا يمتثلون إلى حظر ذبح الأبقار. كان الموبلا أحفاد المهاجرين العرب، وكانوا في غالبيتهم من البحارة والنساء الهنديات من الطبقة الدنيا. وكان الفلفل الذي يُزرَع على نطاق واسع في المنطقة الداخلية المنتج الأول للتصدير المباشر، فضلاً عن الزنجبيل، وكانت توجد أيضاً سلع من كل نوع يمكن تخيله لإعادة تصديرها في الاتجاهين. وكانت البنية التحتية اللازمة للتجارة، سواء المادية ممثلة في أحواض السفن والمستودعات، أو الأعمال المصرفية والخدمات المالية، متوفرة بغزارة، وكان هناك نظام قانوني مدقق ونزيه، ورسوم وجمارك خفيفة نسبياً لتشجيع التجارة.

كان الموقف السياسي العام في الهند في ذلك الوقت موقفاً نتقالياً. وكانت الدولة المهيمنة هي سلالات العبيد الأتراك القوية التي تتابعت على سلطنة دلهي، لكنها وهِنت، وحلت محلها سلالة اللودهيين Lodis الأفغانية الأضعف في منتصف القرن الخامس عشر، قبل أن تلحق بهم الهزيمة في العام ١٥٢٦ من بابُر مؤسس الدولة المغولية[١٦]. وكانت الهند الوسطى والجنوبية تتنافس عليها مملكة فيجاياناغارا Vijayanagara الهندوسية القوية ودولة إسلامية عُرِفت باسم سلطنة باهماني Bahmani، والاثنتان انفصلتا عن سلطنة دلهي بعد أن تدهورت إبان القرن الرابع عشر.

---

(١٦) ظهير الدين محمد بابُر (١٤ فبراير ١٤٨٢ إلى ٢٦ ديسمبر ١٥٣٠) من أحفاد تيمورلنك حكام فرغانة، مؤسس الدولة المغولية في الهند. غزا الهند من أفغانستان وسيطر على معظم مناطق الهند الشمالية (١٥٢٥- ١٥٢٦) [المترجم].

وإلى الشمال على الساحل الغربي، كانت توجد سلطنة إسلامية غنية أخرى هي غوجارات كان يقع فيها مركز المنسوجات القطنية الكبير وميناء كامباي. وفي الشرق كانت البنغال أيضاً يحكمها حاكم مسلم مستقل.

كانت المراكز التجارية الرئيسة على الساحل الغربي في ذلك الوقت هي كامباي وكاليكوت، يليها غوا Goa وكانانور Cananore وكوشين Cochin. وكانت هذه الموانئ جميعها تزدحم بالسفن القادمة من هرمز وعدن على مدخل الخليج العربي والبحر الأحمر على التوالي. وكانت أهم الواردات إلى الهند على الإطلاق سلعة سبق أن صادفناها وهي الخيول الفارسية والعربية للفرسان في الدول الهندية المتحاربة. وثمة "حيوان حرب إستراتيجي آخر"، هو الفيل المدرب على القتال الذي كان يصدّر من سريلانكا، وكذلك القرفة واللآلئ. وكان الحرير والسجاد والأصباغ تلي الخيول في الأهمية كصادرات من بلاد فارس. وكانت موانئ شرق أفريقيا مثل مومباسا وماليندي وكيلوا وسفالة[١٧] ترسل العاج والأبنوس والعبيد والذهب، وتأخذ في مقابلها المنسوجات القطنية بالدرجة الأولى من غوجارات. وكان القرنفل وجوز الطيب والصولجان القادم من جزر باندا وجزر الملوك[١٨] يُفرّغ في موانئ مالابار للنقل غرباً. وكانت البنغال وساحل كورومانديل على الجانب الشرقي لشبه الجزيرة يصدّران الأقمشة القطنية إلى مالاكا والموانئ الأخرى بجنوب شرق آسيا، في مقابل التوابل والخزف من الصين. وكان التجار التاميليون، من أمثال الشتيار Chettiars، مؤثرين جداً في هذا النصف الشرقي من تجارة المحيط الهندي (انظر الشكل رقم ٤.١). واعتمدت موانئ كثيرة على واردات الأرز التي كانت توفرها جاوة وبيغو. ولم يحاول أي من دول المحيط الهندي أن تفرض سيطرتها على التجارة أو أن تتدخل فيها لتحريك الأسعار النسبية لصالحها، وكانت معظم المكوس والرسوم لأغراض الدخل فقط. فقد كان "الانفصال بين السوق والدولة" واضحاً تماماً. وباستثناء القرصنة، كانت البحار

(١٧) سفالة Sofala ميناء في موزمبيق يُعرَف حالياً باسم نوفو سوفالا، كان الميناء الرئيس لمملكة موتابا Mutapa بشرق أفريقيا [المترجم].

(١٨) جزر باندا Bandas جزء من جزر الملوك Moluccaa بإندونيسيا التي عُرِفت قديماً بجزر التوابل [المترجم].

تتمتع بحرية كاملة، فحرية البحار Mare Liberum التي نادى بها هوغو غروتيوس[١٩] لاحقاً في المياه الأوروبية، كانت قد أنجزت في الشرق قبل أن يتدخل البرتغاليون لعرقلتها.

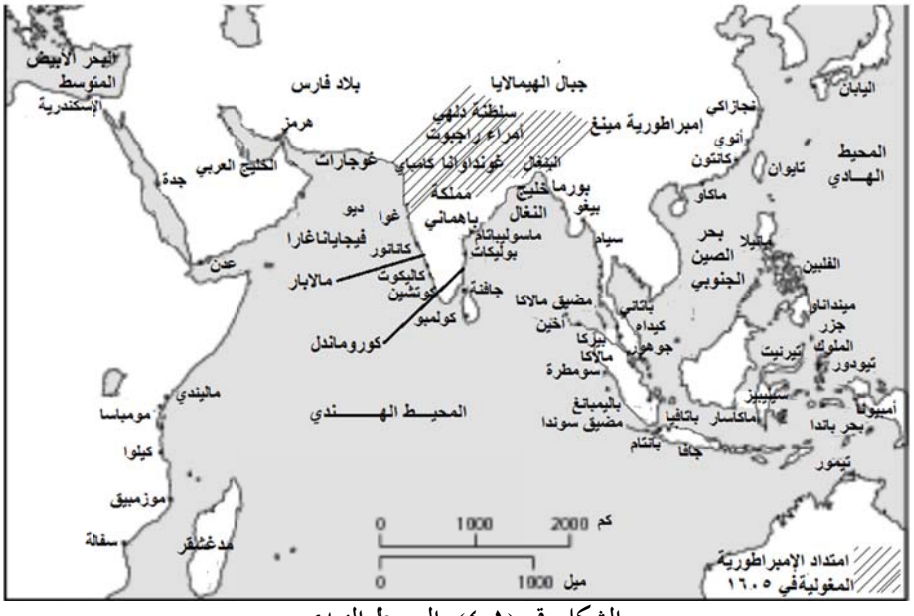

الشكل رقم (٤,١). المحيط الهندي.

وبعد عودة دا غاما من كاليكوت، لَقّب دوم مانويل نفسه باسم "سيد الغزو والملاحة والتجارة في إثيوبيا وبلاد العرب وبلاد فارس والهند"، ورأى البرتغاليون أن ذلك يعطيهم الحق في احتكار كل الشحن والتجارة في البحار الشرقية وتنظيمهما، وبخاصة تجارة التوابل. ونظر البرتغاليون إلى التجار المسلمين على أنهم أعداء، وأخضعوا سفنهم للحجز أو المصادرة أو التدمير، ما لم تُعفَ بإذن، كان يسمى قرطاس cartaz، بعد دفع الرسم الملائم. كانت الرسوم نفسها تافهة، لكن السفينة

(١٩) هوغو غورتيوس Hugo Grotius (١٠ أبريل ١٥٨٣ إلى ٢٨ أغسطس ١٦٤٥) قاضي وعالم قانون من الجمهورية الهولندية، وضع مع فرانسيسكو دي فيتوريا Francisco de Vitoria وألبريكو جنتيلي Alberico Gentili الأسس للقانون الدولي بناء على القانون الطبيعي [المترجم].

كانت تضطر لأن ترسو في ميناء خاضع للسيطرة البرتغالية وأن تدفع الرسوم على شحنتها وأن تترك رهنا للعودة إلى الميناء نفسه في رحلة العودة لدفع الرسوم مرة ثانية على الشحنة الجديدة[١٨]. ومن أجل دعم هذه السياسة المتطرفة، حاولت دولة الهند(٢٠)، كما أطلق على نظام ما وراء البحار البرتغالي، أن تقيم حلقة من النقاط الساحلية القوية المحصنة عبر المحيط الهندي من مالاكا في الشرق إلى هرمز وعدن في الغرب. ويعتبر أفونسو دي ألبوكرك Afonso de Albuquerque الذي عُيّن حاكماً لدولة الهند في السنوات التكوينية من العام ١٥١٠ إلى العام ١٥١٥ مهندس هذا المخطط، فاستولى على غوا في العام ١٥١٠ لتكون القاعدة المركزية، ثم مالاكا في العام ١٥١١، ثم هرمز في العام ١٥١٤. لكن فشلت محاولته للاستيلاء على عدن في العام ١٥١٣، ومعها فشلت المحاولة البرتغالية لاحتكار تصدير التوابل إلى أوروبا، إذ ظل البحر الأحمر مفتوحاً للشحن الإسلامي. وعلى الرغم من بعض الانتصارات البحرية الرئيسة، مثل الانتصار على الأسطول المملوكي قبالة ساحل ديو في العام ١٥٠٩(٢١)، لم يكن لدى البرتغاليين العدد الكافي من السفن أو الرجال الذي يمكّنهم من فرض مخطط الاحتكار، في حال عدم السيطرة على عدن.

يقول بوكسر إن عدد سكان البرتغال إبان القرن السادس عشر لم يزد عن مليون وربع المليون نسمة، ولم يزد عدد الذكور البرتغاليون القادرون على حمل السلاح في حروب الشرق عن عشرة آلاف في أي وقت[١٩]، مع أن سوبراهمانيام وتوماس Subrahmanyam and Thomaz يذكران تقديراً من أربعة عشر ألفاً إلى ستة عشر ألفاً في الربع الأخير من القرن السادس عشر[٢٠]. ولذلك لجأ البرتغاليون إلى السكان

(٢٠) دولة الهند Estado da India أو الهند البرتغالية هو الاسم الذي أطلق على الممتلكات البرتغالية في الهند، الذي تحوّل لاحقاً إلى شركة الهند الشرقية البرتغالية [المترجم].

(٢١) معركة ديو البحرية Diu، تُعرَف أيضاً باسم معركة جاول الثانية، معركة بحرية فاصلة في تاريخ البشرية، وقعت في الثالث من فبراير عام ١٥٠٩ بالقرب من ميناء ديو الهندي، بين الأسطول البرتغالي مدعوماً من البندقية وراغوزا وأسطول مشترك من سلطنة المماليك البرجية المصرية وسلطنة غوجارات وحاكم كاليكوت مدعوماً من الدولة العثمانية. انتصر فيها البرتغاليون، وكانت نقطة تحول، فقد المسلمون بعدها السيطرة على المحيط الهندي وخطوط التجارة البحرية مع آسيا وبدأت الهيمنة الأوروبية على هذا المحيط وتجارته [المترجم].

الأوراسيين وفيري العدد والأطقم والجنود المحليين لتعويض النقص. ولم يتجاوز عدد السفن البرتغالية في أي عام عتبة الثلاثمئة سفينة، وفقاً لهذا المرجع نفسه. وكانت الخسائر في كل من السفن والرجال في دولة الهند ثقيلة جداً بسبب الطقس والمرض والحرب. وفي النهاية، حلت تسوية كان التجار والحكام المسلمون بمقتضاها يدفعون "إتاوات" متوسطة للبرتغاليين، متى تعذر تجنب ذلك، فيما انخرط التجار البرتغاليون الخاصون في تجارة الشحن المحلية المربحة في شراكة مع المسلمين والهنودس المحليين.

وعلى الرغم من هذه المشكلات التي أعاقت فرض مخططاتهم الطموحة، فإن النجاح الذي أنجزه البرتغاليون كان رائعاً بكل المقاييس. يأتي على رأس الأسباب التي تُذكَر دائماً لهذا النجاح الشقاق بين خصومهم. فكوشين وكانانور، على سبيل المثال، تعاونتا مع البرتغاليين ضد منافسهم زامورين حاكم كاليكوت، قبل أن يتحول إليهما البرتغاليون ويلتهموها. وكانت دولة فيجاياناغارا الهندوسية القوية راضية بالحصول على ما تحتاجه من خيول لفرسانها من البرتغاليين فقط، بعد أن استولى الأخيرون على كل من هرمز التي كانت الخيول الفارسية تُشحَن منها عبر بحر العرب، وعلى غوا التي كانت الخيول المنقولة بحراً تنزل فيها للنقل إلى داخل البلاد. وأخيراً، اتحدت السلطنات الإسلامية في الدكن، مثل بيجابور Bijapur التي انتزع البرتغاليون غوا منها، ودمرت الدولة الهندوسية الرئيسة المنافسة في العام ١٥٦٥، ما أدخل تجارة الخيول المربحة في حالة من الركود المؤقت. وفي الأرخبيل الإندونيسي، كان التنافس بين السلطنات الإسلامية أيضاً في صالح البرتغاليين. وكانت الدولة الآسيوية الوحيدة التي لم يحقق البرتغاليين مكاسب على حسابها هي الصين. وباءت المحاولات لاستخدام القوة في بحر الصين الجنوبي إبان العقد الثالث من القرن السادس عشر بالفشل على صخرة الأساطيل الساحلية لإمبراطورية مينغ، وكما سنرى لاحقاً فإن البرتغاليين لم يصلوا إلى ميناء مكاو إلا إبان العقد السادس من القرن السادس عشر، بعد إبرام صفقة مع المسؤولين الصينيين المحليين.

ثمة تفسير آخر رائج للنجاح البرتغالي في المياه الشرقية، هو استخدامهم للأسلحة النارية، وبخاصة الاستخدام الفعال للمدافع المحملة على ظهر السفن المبحرة

في المحيطات. فعلى الرغم من أن الممالك الهندية كانت تستخدم المدفعية على الأرض، فإنها عموماً لم تستطع أن تستخدمها في البحر. وقد كان المماليك معروفاً عنهم احتقار استخدام الأسلحة النارية، لكن العثمانيين الذين حلوا محلهم في العام ١٥١٧- كما رأينا- وورثوا عنهم الاهتمام بتجارة البحر الأحمر لم تكن تردعهم هذه المحظورات. وفي بعض الأوقات، كانت السفن التركية تلحق أضراراً كبيرة بالسفن والقواعد البرتغالية. لكن إجمالاً، كان الحكام الآسيويون "البريون"، مثل سلطان غوجارات، يرون أن "الحروب البحرية شأن التجار وعملهم ولا تؤثر على مكانة الملوك"[٢١]. ولا شك في أن جهداً مخططاً من جانب أي من الممالك الهندية القوية كان من شأنه أن يبعد البرتغاليين عن قواعدهم، لكن يبدو أن كل الممالك لم تَرَ ذلك في مصلحتها. وكانت الدول التجارية والجماعات الصغرى على ساحل مالابار هي التي ترى تعارضاً كاملاً بين مصالحها ومصالح البرتغاليين، ما اضطرهم للدخول مع البرتغاليين في حرب واسعة حين كان بديلهم الوحيد هو الإذعان للمطالب البرتغالية. ولذلك فقدت كاليكوت استقلالها لصالح كوشين، وهُزِم الموبلا، لكن بعد صراع قاسٍ.

أدى استيلاء البرتغاليين على مالاكا في العام ١٥١١ إلى إعاقة النمط التقليدي لتجارة المحيط الهندي في البداية، بسبب الموقع المهيمن للميناء ونظامه التجاري الليبرالي. لكن التجار التاميليين استمروا في التجارة في مالاكا[٢٢]، لكن الغوجارات المسلمين فتحوا منفذاً بديلاً عبر آتشيه عند الطرف الشمالي الغربي لسومطرة على الساحل الغربي، وعبر مضيق سوندا إلى بانتام Bantam في شمال غرب جاوة. ومن آتشيه، كانوا يصدّرون الفلفل عبر جزر المالديف إلى البحر الأحمر، وأخيراً إلى البندقية. وكان من الممكن أيضاً أن يُنقَل الفلفل إلى الهند، ثم شمالاً على امتداد الساحل الغربي إلى غوجارات، حيث يصدّر منها إلى البحر الأحمر، على الرغم من الدوريات البرتغالية. فالفشل في الاستيلاء على عدن ظل يشكل نقطة ضعف لدولة الهند البرتغالية.

يستشهد بوكسر (١٩٦٩) بالكثير من المصادر البرتغالية والمصادر الأوروبية الأخرى لإثبات أن السفن التي كانت تعمل في تجارة آتشيه - البحر الأحمر كانت

"سفناً ضخمة" من نفس نوع سفينة القرقور البرتغالية الكبيرة، ومشابهة لها في الحجم والتسليح، إن لم تكن أكبر حجماً وأكثر تسليحاً، ومماثلة لها في الأشرعة والشكل. ويبدو أنها كانت تحمل أعداداً كبيرة من الأتراك والعرب والأحباش وغيرهم من المرتزقة لحمايتها وللمشاركة في المعارك العرضية مع السفن الحربية البرتغالية التي كانت تحاول اعتراضها، كما حدث مثلاً في العام ١٥٦٢ والعام ١٥٦٥[٢٣]. فمنذ أن أخذ البرتغاليون يشيدون سفنهم على الساحل الغربي للهند، نجد أنفسنا أمام مثال واضح لنقل التقنية الناجح من الغرب إلى الشرق. وكانت آتشيه شوكة كبرى في حلق البرتغاليين، وكانت هجماتها المتكررة على مالاكا تضاعف الضرر الناتج عن تحويل طريق تجارة التوابل. ولذلك ظهرت دعوات كثيرة لهجوم شامل على آتشيه لحل تلك المشكلة، لكن النظام في غوا لم يتمكن يوماً من جمع الموارد اللازمة للقيام بهذه العملية المُكْلِفة.

ثمة مشكلة مزمنة أخرى لم تتمكن دولة الهند أبداً من حلها، وهي النزاع بين مصالح مسؤوليها كخدم للتاج البرتغالي من ناحية، وقادة عسكريين أو تجار خاصين لحساب أنفسهم من ناحية أخرى. فلم تكن دولة الهند بالتأكيد بيروقراطية فيبرية(٢٢) حديثة تتبع مجموعة منظمة ومحكمة من القواعد والإجراءات تضمن سلاسة العمل لصالح الدولة وحدها. وكما أوضح نيويت Newitt، فإن البرتغال أنجزت بداية واعدة في تطوير شركة حكومية بيروقراطية هي شركة غينيا Casa da Guine التي أُنشِئت لإدارة العمليات العسكرية والعلاقات التجارية في غرب أفريقيا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر[٢٤]. وقد أنشأوا نسخة أكبر من هذه المنظمة، هي شركة الهند، للقيام بالدور نفسه في المحيط الهندي. لكن بسبب النطاق الأوسع والمسافات الأطول كثيراً في الحالة الأخيرة، وما يرافق ذلك من مشكلات في الاتصال، كان من المستحيل أن تعمل

(٢٢) فيبري Weberian نسبة إلى الفيلسوف وعالم الاجتماع والسياسة الألماني ماكس فيبر Max Weber (٢١ أبريل ١٨٦٤ إلى ١٤ يونيو ١٩٢٠) صاحب مذهب العقلانية، الذي قال بأن السلطة في الدولة الحديثة تقوم على أبنية عقلانية- قانونية، في مقابل السلطة الكاريزمية والتقليدية في الدول ما قبل الحديثة، وهذه السلطة العقلانية تتضمن الإدارة العامة الحديثة، بمعنى "الخدمة المدنية" الهرمية، ودعا إلى أن تمتلك الدولة وحدها حق احتكار الاستخدام الشرعي للقوة المادية [المترجم].

هذه الشركة على النحو الذي جاء في تصورها الأصلي. فكان تبادل الرسائل يستغرق شهرين في غرب أفريقيا، في مقابل سنتين بين لشبونة وغوا. كما أن نطاق المشروع بالنسبة للموارد المالية للبرتغال كان يعني أيضاً استحالة الدفع الفوري والمنتظم للرواتب والصيانة ورأس المال العملي. وإضافة إلى ذلك، كانت هناك مشكلة أخرى تمثلت في نقص القوة البشرية المدربة اللازمة لمهمة إدارة الإمبراطورية. فعلى خلاف قشتالة التي ضمت أكثر من ثلاثين جامعة لتدريب كثير من الموظفين المتعلمين، ضمت البرتغال جامعة كويمبرا Coimbra فقط، ولاحقاً أضافت كلية إيفورا Evora اليسوعية. وفي ظل هذه الظروف، لم يكن غريباً أن يلجأ البرتغاليون إلى نموذج بديل، هو استعمار جزر المحيط الأطلسي، كما رأينا في مواضع سابقة.

يتفق هذا البديل مع الشكل الإقطاعي التقليدي الموروث من القرون الوسطى الذي كان الحاكم فيه يفوض سلطته إلى طبقة النبلاء أو أفراد مؤتمنين أقل مرتبة، مع الاعتراف بأنهم يستخدمون مناصبهم لإعالة أنفسهم وأقربائهم وأتباعهم بأساليب حياتهم المعتادة، إلى جانب الالتزام في الوقت نفسه بمسؤولياتهم أمام الملك والدولة. وكانت قيم هؤلاء النبلاء وتدريبهم وأخلاقياتهم تميل نحو الشرف والمجد من المآثر العسكرية وتوفير الرعاية للأهل والحشم، وهو أمر عقلاني تماماً بالتأكيد في سياق المجتمع الذي كانوا يعيشون فيه. كان من التقاليد الشائعة في أوروبا إبان العصر الحديث المبكر شراء المناصب وبيعها بحرية بأسعار تعكس الريوع التي كان يمكن جمعها من هذه المناصب[٢٥]. ولذلك كان منصب قاضي الجمارك في غوا يباع في العام ١٦١٨ بأكثر من ضعف الثمن الذي يدفع في منصب رئاسة المدينة كاملة. وكانت رئاسة حصني هرمز وديو تباع بخمسة أضعاف وأربعة عشر ضعف رئاسة العاصمة غوا على التوالي، بسبب التجارة المربحة جداً للخليج العربي وغوجارات التي تمر خلالهما. وكانت مدد هذه المناصب عادة قصيرة جداً، ونادراً ما كانت تتجاوز ثلاثة أعوام، ولذلك هيمنت الرغبة في انتزاع أقصى قدر ممكن من الريوع على حساب متابعة أية أهداف طويلة المدى لصالح الدولة. وفي ظل هذه الظروف، لم يكن مفاجئاً أن تتعرض القواعد الصارمة لفرض احتكار تجارة التوابل للخرق مرات ومرات. وفي ذلك يستشهد نيويت

بحالة سفالة في العام ١٥٤٨ التي لم يكن يتوفر بها ناب واحد لتنفيذ الاحتكار الملكي لتصدير العاج، بينما كان قائد الميناء يشحن كميات ضخمة من العاج لحسابه الخاص[٢٦]. وكان المسؤولون البرتغاليون في مالابار يشترون الفلفل لحسابهم بأسعار أعلى من الأسعار المنخفضة التي كانوا يعرضونها هم أنفسهم للزراع بصفتهم مديري الاحتكار الملكي للتوابل. ويذهب بيرسون أبعد من ذلك إلى القول بأن الفشل في الاستيلاء على عدن ربما يمكن تفسيره بأن إغلاق البحر الأحمر كان من شأنه أن يقلل فرص السماح بمرور السفن الإسلامية المحظورة وتربح الفاسدين من وراء ذلك[٢٧].

كانت فرص السلب والنهب الدافع الأقوى والأكثر إغواءً ومكراً الذي اعتمد عليه التاج لحل مشكلة "الرئيس- الوكيل" في دولة الهند البرتغالية. فداخل حدود الإمبراطورية البرية، كان مسؤولو الدولة ملزمين بالحفاظ على أرواح الشعوب الخاضعة وممتلكاتهم، بشرط أن يذعنوا ويدفعوا الضرائب والإتاوات المفروضة للدولة، وكانت حصة من هذه الإيرادات تذهب إلى المسؤولين. أما الإمبراطورية البرتغالية "المنقولة بحراً"، فكانت من نوع مختلف كلياً. فالقلاع والموانئ القليلة التي كانت تخضع لهم لم تكن تضم أعداداً كبيرة من الأهليين غير المسيحيين ممن يمكن فرض الضرائب عليهم. فيما كانت الدول والقبائل والأفراد المسلمون أو الوثنيون يخضعون لشكل أو آخر من أشكال النهب من جانب دولة الهند البرتغالية وموظفيها. فكانت النقاط القوية على الشواطئ تعيش على الإغارة على الأراضي المجاورة، وكانت الأساطيل البحرية البرتغالية تنفق على أنفسها من الغنائم والأسلاب التي كانت تأخذها، كما أوضح فاسكو دا غاما نفسه[٢٨]. وكانت الدول والمدن العنيدة توفر فرصاً مواتية للنهب المنظم. ولذلك فحين اقتحم فرانسيسكو دي أليدا Francisco de Almeida مومباسا في العام ١٥٠٥، وعُيّن أول نائب للملك فيها، قسم المدينة إلى أرباع، وأعطى للضابط المسؤول الحق في الاستيلاء على كل السلع والأشخاص الذين يأسرهم بعد اقتطاع نصيب ملائم للدولة.

أنتج الاعتماد على النهب كأداة لبناء الإمبراطورية مشكلات، كان منها سرعة استنزاف الفرص في المنطقة التي ينزلون بها، ما فرض عليهم توسيع "تخوم النهب"

للحفاظ على الزخم. وفي ذلك يقول نيويت إن "حركة تخوم النهب هي التي كانت تجذب الرجال إلى مناطق جديدة وتوسّع الاكتشافات، بمعنى أن النهب كان القوة الدافعة الرئيسة للاكتشاف"[٢٩]. وبعد المكاسب الأولية من الاستيلاء على الثروة، كان لا بد من اللجوء إلى الفرص المعتادة، ممثلة في جمع المكوس والرسوم والأرباح التجارية. لكن هذه القنوات ما كانت لتفي بمطالب طبقة النبلاء، ولذلك دأبت الدولة على الاستيلاء على ما تستطيع من الأقاليم. وفيما كانت الهند المغولية وإمبراطورية مينغ الصينية أقوى من أن يتم اجتياحهما لنهبهما، كانت أنغولا وموزمبيق وسيلان أسهل في الالتهام. لكن هذه الإضافات ربما أضافت إلى كُلفة الإمبراطورية أكثر منها إلى عائداتها، مع أنها أشبعت احتياجات النبلاء إلى نمط الحياة الأرستقراطي.

يطرح بيرسون فرضية مثيرة باتباع منهجية الدراسة المناقضة للحقائق: ماذا لو اعتمدت دولة الهند على المنافسة الاقتصادية السلمية في تجارة التوابل واستغلت ميّزة التكلفة التي وفرها طريق رأس الرجاء الصالح، بدلاً من المحاولة المكلفة والفاشلة في النهاية لفرض الاحتكار بقوة السلاح؟ ويستشهد بأرقام من المؤرخ الاقتصادي البرتغالي الكبير فيتورينو ماجالاس غودينو Vitorino Magalhaes-Godinho لإثبات أن فرق السعر بين تكلفة الفلفل في لشبونة ومالابار كان يمكن أن يعطي ربحاً إجمالياً قدره ٢٦٠٪ وهامشاً صافياً قدره ١٥٢٪ بعد خصم تكلفة النقل والفقد[٣٠]. وتأسيساً على ذلك، يستنتج أن التجارة السلمية كان يمكن أن تكون أكثر ربحاً بكثير من سياسة الاحتكار العسكري بنفقاتها الثقيلة على القلاع وأساطيل الحرب. ويدفع أيضاً بأن شركتي الهند الشرقية الهولندية والبريطانية إبان القرن السابع عشر لم تسعيا إلى فرض الاحتكارات بالقوة في الهند، مع أن الهولنديين فعلوا ذلك على نطاق واسع في جزر الملوك وجاوة، كما سنرى لاحقاً. ويكمن السبب وراء عدم اتباع البرتغاليين لهذه السياسة السلمية البديلة بالتأكيد إلى تأثير تقاليد الحروب الصليبية والروح الإقطاعية لطبقة النبلاء.

بيد أن هذه الفرضية على الرغم من جاذبيتها تبدو غير محتملة بالنسبة لنا. فدولة الهند – كما رأينا – كانت تعتمد صراحة على النهب كأداة لعملياتها التجارية،

وكجزء أساسي من نظام المكافآت لموظفيها، وكمصدر لرأس المال العملي. والتجارة السلمية تماماً كانت تحتاج في إطلاقها إلى رسملة أولية أعلى كثيراً. فعلى خلاف المقاطعات المتحدة الهولندية[٢٣] وبريطانيا في العام ١٦٠٠، كانت البرتغال في العام ١٥٠٠ بلداً فقيراً يفتقر إلى الموارد التي كانت تدرّها أسواق رأس المال بأمستردام ولندن، حتى اضطرت في ذلك العام إلى الاقتراض من الجنويين والفلورنسيين بفوائد ثقيلة جداً. علاوة على أن تدفق الفضة من العالم الجديد الذي بدأ ينهمر على أوروبا في العام ١٦٠٠ والذي استخدمته شركات الهند الشرقية لشراء التوابل لإعادة بيعها في أوروبا، لم يكن قد بدأ بعد في العام ١٥٠٠. ولذلك يبدو أن اعتماد البرتغال على ميّزتها النسبية في العنف كان جزءاً لازماً من جهودها الأولية إبان القرن السادس عشر، حيث لم تكن ميّزة التكلفة بفضل اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح تكفي وحدها.

ومع نهاية القرن السادس عشر، حل توازن متعدد المراكز في تجارة المحيط الهندي محل هيمنة مالاكا السابقة. فأصبح على مالاكا البرتغالية أن تتقاسم التجارة مع آتشيه وبانتام، بل ومراكز أخرى مثل ماكاسار Makassar كما سنرى. فالمصانع والقلاع التي أنشأها البرتغاليون في تيرنيت Ternate وتيدور Tidore وأمبون Amboyna وتيمور الشرقية والأماكن الأخرى لم تستطع أن تمنع التجار المحليين والصينيين والهنود من العمل في تجارتهم وتوسيعها. وكان الخيار الفعال الوحيد المتاح هو أن يعمل البرتغاليون معهم، ليس كوكلاء للتاج كما كانت الحال في مالاكا، لكن في تجارة خاصة لحساب البرتغاليين كأفراد وفي المشروعات المشتركة مع غير الغربيين. وتدريجياً، أصبحت كلمة "برتغالي" تعني أوراسي من أصل هندي أو إندونيسي، كما أوضح داس غوبتا Das Gupta[٣١]. ولذلك لم يكن التوازن الجديد في آسيا مختلفاً كثيراً عن التوازن القديم، على الرغم من حدوث تغييرات كبيرة على الطرف الأوروبي لطرق التجارة، كما سنرى لاحقاً.

---

(٢٣) المقاطعات المتحدة أو الجمهورية الهولندية أو جمهورية المقاطعات الهولندية السبع المتحدة كانت الكيان السياسي الذي حكم المقاطعات الهولندية من العام ١٥٨١ إلى العام ١٧٩٥، قبل تأسيس الجمهورية الباتافية Batavian Republic ومملكة هولندا المتحدة وأخيراً مملكة هولندا الحالية [المترجم].

ثمة اعتراف متنام بأن ما سُمي "حقبة فاسكو دا غاما"[٣٢] لم تختلف كثيراً عما كان يحدث قبلها في أسواق التوابل الآسيوية، وأن الفأر الأوروبي لم يتمكن بعد من تحريك الفيل الآسيوي، وذلك موضوع رئيس في الأدبيات الأخيرة حول التاريخ البحري الأسيوي إبان العصر الحديث المبكر[٣٣]. فقبل دا غاما كانت الواردات الأوروبية تشكل على الأكثر ربع إنتاج التوابل الآسيوي، وظل الآسيويون المستهلكين الأساسيين طوال القرن السادس عشر[٣٤]. ويذكر كينيوتز Kieniewicz أن نحو ٣٠٪ فقط من إنتاج مالابار من الفلفل كان يذهب إلى لشبونة في العام ١٥١٥، فيما استهلك الآسيويون الـ٧٠٪ الباقية، وبينما نُقِل ٥٥٪ فقط من إنتاج مالابار بين العامين ١٥٠٤ و١٥٤٩ إلى لشبونة، ذهب الباقي إلى المشرق[٣٥]. ومع أن إمدادات الفلفل من مالابار ارتفعت بنسبة ٧ أو ٨٪ سنوياً إبان القرن السادس عشر، فإن ذلك نتج عن "زيادة الطلب على الفلفل في الهند والصين وبلاد فارس والبلاد التابعة للإمبراطورية العثمانية"، وليس نتيجة لأي حدث في أوروبا[٣٦]. وعلى ذلك، فقد ظل الأوروبيون يستهلكون ربع ناتج الفلفل الآسيوي فقط حتى العام ١٦٠٠[٣٧]، وكانت الواردات الأوروبية تشكل ٧٪ فقط من إنتاج القرنفل إبان الفترة ١٥١٠- ١٥١٩، ثم ١٧٪ إبان الفترة ١٥٧٠-١٥٧٩[٣٨]. وبالمصطلحات الاقتصادية، نقول إن القرن البرتغالي في آسيا ظل آسيوياً بالدرجة الأولى، ومع أن الأوروبيين دخلوا المنافسة على الأرباح من تجارة التوابل، فإن هذه المنافسة يجب النظر إليها على أنها معركة على رفع الأسعار التي يدفعها المستهلكون الأوروبيون فوق أسعار العرض الآسيوية التي كانت تحددها بالدرجة الأولى، كما كانت الحال دوماً، التفاعلات بين المنتجين والمستهلكين الآسيويين. فيما سارت الأمور على نحو مختلف تماماً في العالم الجديد.

إسبانيا والبرتغال والعالم الجديد

يعرف كل تلاميذ المدارس، أو على الأقل اعتادوا على سماع أن كرستوفر كولومبس كان جنوياً عرض مشروعه للإبحار غرباً للوصول إلى جزر الهند الغربية على عدة قوى أوروبية، منها البرتغال، قبل أن يتبناه أخيراً الملكان المشتركان لإسبانيا

فيردناند الأراغوني وإيزابيلا القشتالية[٢٤] (انظر الشكل رقم ٤.٢). لكن لماذا أقدما على ذلك؟ كانت أراغون إحدى القوى التقليدية بالبحر الأبيض المتوسط وكانت تضم طبقة أصحاب مصالح تجارية حضرية قوية، وبخاصة في كتالونيا. فيما كانت قشتالة في المقابل مجتمعاً رعوياً يمتلك أراضيَ وفيرة واقتصاداً قائماً على تربية الأغنام وتصدير الصوف وطبقة حاكمة من النبلاء (الهدليج) المتشربين بالروح الجهادية للحروب الصليبية تشكلت بفعل عملية الاسترداد[٢٥]. فعلى خلاف البرتغال، لم يكن لدى أي من المملكتين المبرر للقيام بمغامرة أطلسية محفوفة بالمخاطر. لكن تجارة الصوف القشتالية مع شركائها الأوروبيين الشماليين أدخلتها - كما أشار إليوت Elliott - في شبكة تجارية متنامية مع تجار ومصرفيين جنويين بارزين في إشبيلية[٣٩]. كما أدت تجارة الصوف إلى إدخال قشتالة أيضاً في الملاحة في المحيط الأطلسي. وجاء احتلال إسبانيا لجزر الكناري وحملاتها على المغاربة في شمال أفريقيا لتهيئ الملكين لاتخاذ مزيد من الخطوات فيما وراء البحار. ولا بد أن نتذكر أيضاً أن الحدث العظيم الذي شهده العام ١٤٩٢ لم يكن ما نعتقده الآن[٢٦]، وإنما سقوط آخر المعاقل الإسلامية في غرناطة واكتمال عملية الاسترداد الذي أنتج يقيناً مزيداً من الثقة بالنفس[٢٧].

---

(٢٤) رغم زواج فيردناند ملك أراغون من إيزابيلا ملكة قشتالة، ظل كل منهما ملكاً على مملكته، حتى ورث نسلهما المملكتين معاً. وقد منحهما البابا معاً لقب "الملكين الكاثوليكيين" بعد فتحهما لغرناطة مكافأة لهما على تطهير إسبانيا من الممالك الإسلامية وطرد اليهود في العام ١٤٩٢ [المترجم].

(٢٥) حول مفهوم "استرداد إسبانيا" في مقابل مفهوم "سقوط الأندلس"، راجع حاشية سابقة للمترجم [المترجم].

(٢٦) الحدث الأهم الذي وقع في العام ١٤٩٢ من منظور العالم المعاصر هو اكتشاف العالم الجديد، بينما كان الحدث الأهم في ذلك العام بالنسبة لإسبانيا هو إسقاط آخر ممالك المسلمين في الأندلس- غرناطة- إذ وقع الحدثان في العام عينه. فقد "تعثر" كولومبس في ذلك العام في جزر البهاما بالمحيط الأطلسي قبالة سواحل كوبا، وهو في رحلة البحث عن "اليابان" [المترجم].

(٢٧) كانت حروب الاسترداد وحروب إسبانيا على بقايا المسلمين في أيبيريا المعروفين باسم المورسكيين في حرب البشرات (١٥٦٨-١٥٧٠) وغيرها من ثورات المسلمين هناك- كما سيدفع المؤلفان في مواضع لاحقة من الكتاب- بمثابة التدريب الأولي على الاستعمار والامبريالية، وكانت الروح المعنوية والثقة بالنفس اللتان تولدتا لدى الأيبيريين في إسبانيا والبرتغال عن هذه الحروب الدافع إلى مزيد من الفتح والغزو والنهب، أولاً على سواحل شمال أفريقيا العربي، ولاحقاً فيما وراء البحار. وكذلك لعبت حروب إنجلترا على أيرلندا الشمالية الدور نفسه مع الإنجليز. ففي الحالتين، بدأ الغزو الخارجي بغزو داخلي [المترجم].

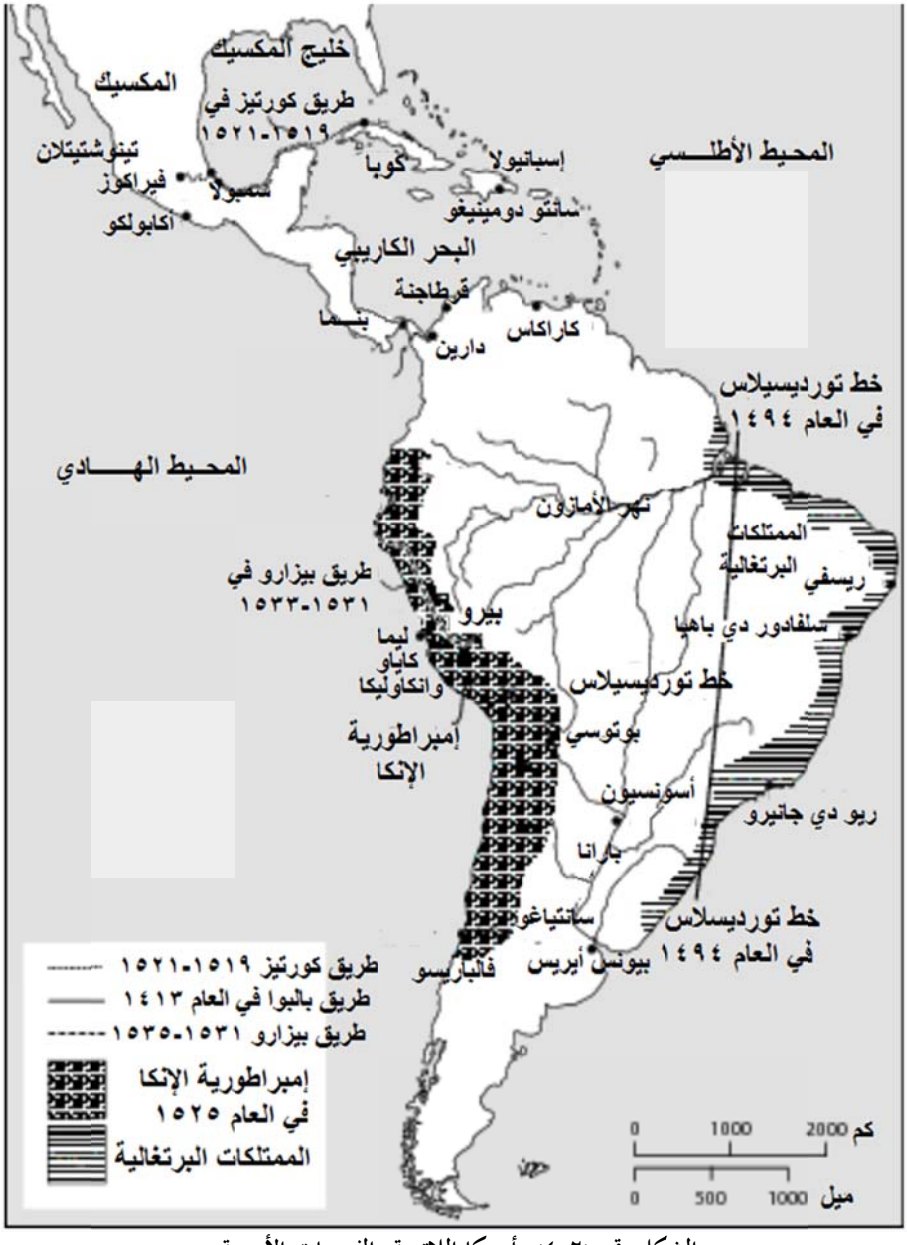

الشكل رقم (٤,٢) .أمريكا اللاتينية والفتوحات الأيبيرية.

وسرعان ما تلا رحلات كولومبس إلى الكاريبي تأسيس مستوطنات في الجزر الكبيرة في إسبانيولا وكوبا. وفي العام ١٥١٣، شاهد فاسكو نونيث دي بالبوا المحيط الهادي، كما هو معروف، وهو "مشدوه على إحدى القمم في دارين Darien"، بعد أن بدأ احتلال برزخ بنما[٢٨] الذي أكمله بيدرو أرياس دافيلا عديم الرحمة الذي أُعدِم بالبوا بأمر منه[٢٩]. وبحلول العام ١٥٢١، كان إيرنان كورتيز Hernan Cortes قد دمر إمبراطورية الأزتك واحتل عاصمتها تينوشتيتلان Tenochtitlan التي أصبحت مدينة المكسيك بستمئة رجل وستة عشر حصاناً وعدد كبير من القوات الهندية المتحالفة، وإبان العقد الرابع من القرن السادس عشر، كان فرانسيسكو بيزارو Francisco Pizarro قد أطاح بإمبراطورية الإنكا في بيرو بمئة رجل وسبعة وثلاثين حصاناً لا غير. وإبان العقد التالي، أُرْسِلت حملات إلى المناطق التي تُعرَف الآن بتشيلي والأرجنتين وبرغواي. وأنشئت موانئ في سانتو دومينغو وهافانا وقرطاجنة، وفي كاياو Callao على شاطئ المحيط الهادي لبيرو لخدمة العاصمة ليما. وكان الملك يمثله في المستعمرات نائبان، واحد للمكسيك أو إسبانيا الجديدة ومقره مدينة المكسيك، وآخر لبيرو أو قشتالة الجديدة ومقره ليما.

لم يتحقق أغلب هذه النتائج الرائعة على أيدي مسؤولي التاج، بل على أيدي من أسماهم باري "بضعة آلاف من الجنود المنهكين"، معظمهم من المنطقة المحيطة بإشتريمادورا، عُرِفوا للتاريخ باسم الفاتحين conquistadores[٤٠]. أما الأسباب التي قُدِمت لنجاحهم المدهش، فتراوحت من حيازة الأسلحة النارية والأسلحة الفولاذية والخيول، وهي جميعها أشياء كانت غير معروفة للسكان الأصليين، والشِقاق

(٢٨) انظر بتتش (Beach, 1934) وويكر (Wicker, 1956).

(٢٩) بيدرو أرياس دافيلا Pedro Arias Davilla مدير استعماري إسباني، قاد الحملة الإسبانية الكبرى الأولى في العالم الجديد، اشتهر كبقية الفاتحين الإسبان بالإسراف في قتل الأمريكيين الأصليين. وقعت منافسة بينه وبين الفاتح فاسكو نونيث دي بالبوا Vasco Nunez de Balboa، هدأت قليلاً بعد أن تزوج الأخير ابنته (التي لم يدخل بها لأنه تزوجها بالوكالة لوجودها في إسبانيا) لوضع حد للروح العدائية بينهما، لكن دافيلا استغل حملة قام بها بالبوا بموافقته على جنوب أمريكا اللاتينية لاتهامه بالخيانة والسعي للاستقلال عن التاج الإسباني، وحوكم وأعدم هو وأربعة من رجاله [المترجم].

وضعف الروح المعنوية على الجانب الآخر، والتصميم الشرس والروح القتالية لدى الرجال أنفسهم والرؤية والاقتدار لدى قادتهم، وبخاصة كورتيز. ولعل الأهم من ذلك أن تعرض الشعوب الأصلية لجراثيم العالم القديم جلب الخراب على أعدادهم التي تدهورت كثيراً نتيجة لموجات الجدري والتيفود والحصبة والأمراض الأخرى التي أضافت إلى اضطرابهم وإلى نجاح الغزو. وتتفاوت تقديرات مدى تراجع السكان كثيراً، لكن أيا كان الرقم الصحيح، فإنه كان مرتفعاً لدرجة مريعة. ومن الأمثلة المتطرفة والمختلف عليها، أن هنري دوبينز Henry Dobyns قدّر أن ما يناهز ٩٥٪ من الأمريكيين الأصليين أبادتهم الأمراض الأوروبية[٤١]. ويذهب ليفي باتشي Livi-Bacci إلى وجود ارتباط منطقي بين تقديرات تراجع السكان والآراء حول أسباب ذلك التراجع، فإذا كانت أعداد السكان قد انخفضت بعشرات الملايين، فقد يبدو أن الجراثيم تفسير أكثر معقولية من التدمير على أيدي عدد صغير نسبياً من الفاتحين. ويقدم ليفي باتشي أدلة معقولة على أن الجراثيم لم تكن العامل الوحيد، بل أيضاً العنف الإسباني، وكذلك كان "إضعاف التناسل والطرد والتهجير الإجباري للشعوب الأصلية إلى مناطق قاسية من العوامل القوية لتراجع أعدادهم. فخلف فناء الهنود، يوجد التصميم الأعمى للجراثيم، فضلاً عن قوى بشرية لا تقل فتكاً"[٤٢].

كانت أعداد الإسبان في العالم الجديد صغيرة، لكن استيراد الخيول والماشية والأغنام والخنازير أدت سريعاً إلى زيادات سريعة في أعداد هذه الحيوانات في بيئة كانت جديدة، لكن مواتية جداً لها. وما أسماه كروسبي Crosby "التبادل الكولومبي" تضمن أيضاً تدفقاً في الاتجاه المعاكس للذرة الصفراء والتبغ والبطاطس، وجميعها أثرت بشدة على العالم القديم بدرجة لا تقل عن تأثير الحيوانات على العالم الجديد[٤٣]. وكان القمح وقصب السكر والقطن من واردات العالم القديم إلى العالم الجديد التي أعاد العالم الجديد لاحقاً تصديرها بكميات ضخمة، وهو أمر كانت له نتائج اقتصادية كبرى. وفي حين كان التأثير السكاني للتبادل الكولومبي، أو التبادل الماجلاني كما أطلق ماكنيل على نقل الأنواع النباتية والحيوانية عبر المحيط الهادي[٤٤]، سلبياً تماماً على العالم الجديد، فإنه كان إيجابياً على أوراسيا على نحو لا لبس فيه[٤٥]. فالمحاصيل

الأمريكية الجديدة عالية الإنتاجية أحدثت في النهاية توسعاً سكانياً في مناطق بعيدة تماماً مثل الصين وأيرلندا. وكما عبر كروسبي في فقرة كثيراً ما يستشهد بها(٣٠)، فإنه "بينما كان الرجال الذين اقتحموا تينشوتيتلان مع كورتيز لا يزالون على قيد الحياة، كان الفول السوداني ينمو في التربة الرملية بالقرب من شنغهاي، وكانت الذرة الصفراء تُخَضّر الحقول في جنوب الصين، وكانت البطاطس الحلوة في طريقها لأن تصبح أكلة الفقراء في فوجيان"[٤٦].

تعتمد البيانات السكانية لهذه الفترة على التقدير بالدرجة الأولى، لكن من الواضح أن عدد سكان المعمور الأفريقي- الأوراسي نما سريعاً إبان القرون التي تلت كولومبس. فيتضح من الجدول رقم(٤.١) أن عدد سكان الصين نما بنحو ٥٠٪ إبان القرن السادس عشر، ثم تراجع على مدار القرن السابع عشر، ثم انفجر إبان القرن الثامن عشر، فتضاعف ثلاث مرات تقريباً بين العام ١٧٠٠ والعام ١٨٢٠. وفي الهند وأوروبا وأفريقيا، نما عدد السكان بثبات، وزاد بأكثر من الضعف على مدار القرون الثلاثة في المنطقتين الأوليين، ونما بأكثر من ٥٠٪ في المنطقة الثالثة. جاء النمو الصيني بعد "الثورة الزراعية الثانية" التي حدثت إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر بفضل إدخال الذرة الصفراء والفول السوداني والبطاطس الحلوة. وفي أيرلندا، لم يوقف النمو السكاني المعتمد على البطاطس إبان القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر إلا وصول وارد آخر من العالم الجديد، هو آفة البطاطس في العام ١٨٤٥[٤٧](٣١).

---

(٣٠) من بين من استشهدوا بها، فلين وجيرالديز (Flynn and Giraldez, 2004) اللذان يشدّدان على هذه التجارة العابرة للقارات في الحمض النووي في روايتهما "عندما بدأت العولمة".

(٣١) شهدت أيرلندا بين العامين ١٨٤٥ و١٨٥٢ المجاعة الكبرى Great Hunger، أو مجاعة البطاطس الأيرلندية، التي مات فيها حوالي مليون إنسان، وهجر مليون آخر بلادهم، ما قلل عدد سكانها بنسبة ٢٠٪. كان السبب المرجح وراء المجاعة مرض يُعرف بآفة البطاطس، أتلف محصول البطاطس في كل أوروبا إبان العقد الخامس من القرن التاسع عشر، لكن تأثيره كان أكبر على أيرلندا التي كان ثلث سكانها يعتمدون بالكامل على البطاطس في غذائهم، فضلاً عن عوامل سياسية واجتماعية واقتصادية أخرى [المترجم].

الجدول رقم (٤,١). عدد سكان العالم القديم إبان الفترة ١٥٠٠–١٨٢٠ (بالملايين).

	١٥٠٠	١٦٠٠	١٧٠٠	١٨٢٠
الصين	١٠٣,٠٠٠	١٦٠,٠٠٠	١٣٨,٠٠٠	٣٨١,٠٠٠
الهند	١١٠,٠٠٠	١٣٥,٠٠٠	١٦٥,٠٠٠	٢٠٩,٠٠٠
جنوب غرب آسيا	١٧,٨٠٠	٢١,٤٠٠	٢٠,٨٠٠	٢٥,١٤٧
أقاليم الاتحاد السوفيتي السابق	١٦,٩٥٠	٢٠,٧٠٠	٢٦,٥٥٠	٥٤,٧٦٥
أوروبا الشرقية	١٣,٥٠٠	١٦,٩٥٠	١٨,٨٠٠	٣٦,٤٥٧
أوروبا الغربية	٥٧,٢٦٨	٧٣,٧٧٨	٨١,٤٦٠	١٣٣,٠٤٠
أفريقيا	٤٦,٦١٠	٥٥,٣٢٠	٦١,٠٨٠	٧٤,٢٣٦

المصدر: Maddison (2003)

يمكن النظر إلى الاختراق الإسباني لأمريكا في هذه العقود الأولى باعتباره "تخوماً استيطانية" كانت تتحرك وراء "تخوم النهب"[٣٢] التي انتقلت من جزر الكاريبي إلى المكسيك الوسطى وبيرو قبل أن يلتقي الاثنان في منتصف القرن السادس عشر. فقد اقتصر العقدان الأولان في الجزر على نهب السكان المحليين البدائيين نسبياً وتدميرهم، إلى أن استنزفت الفرص بالاستيلاء على مخزون الذهب لدى الهنود والاختفاء شبه الكامل للشعب الهندي نفسه. أسهمت الموارد التي جمعت بهذه الطريقة في تمويل البعثات المبكرة إلى الجزيرة التي واجهت إمبراطوريتي الأزتك والإنكا الأكثر تقدماً وكانت تقبع على رأس الهرم الاجتماعي فيهما أرستقراطية من المحاربين والكهنة، كانت تنتزع ضرائب ثقيلة من السكان الفلاحين المستقرين. فاستعاض كورتيز وبيزارو عن النخبة المحلية الحاكمة بأخرى إسبانية عاشت في الحالتين على استغلال الفلاحين المُخْضَعين. وأدت الوحشية البشعة التي أنزلها الفاتحون بالسكان المزارعين إلى خفض فائض الدخل من الأرض الذي كان يذهب إلى الحكام الإسبان الجدد. وظهر مصدر دخل بديل للملاك الجدد في تربية الماشية في المراعي المفتوحة والأراضي التي كان يفلحها في السابق الفلاحون الذين أخذت أعدادهم تتناقص. وأدى اكتشاف مناجم

(٣٢) بمعنى أن التوسع في التخوم كان يحدث أولاً بدافع النهب، وبعد نهب هذه المنطقة أو تلك يحدث الاستيطان فيها [المترجم].

الفضة الضخمة في المكسيك وبيرو إبان العقد الخامس من القرن السادس عشر إلى زيادة كبيرة في الطلب على اللحم لإطعام عمال المناجم، وكان ذلك أيضاً مصدراً كبيراً للربح للمستوطنين ومصدراً للعائدات للتاج. وبدلاً من الاعتماد على تدفقات رأس المال من إسبانيا لتمويل الاستثمارات في العالم الجديد، اِسْتُخدِمت الثروات التي اكتشفت في العالم الجديد لتمويل الإنفاق الحكومي والمشروعات الخاصة في إسبانيا نفسها.

يذكر ماكلاود Macleod أنه على مدى العقود الأربعة الأولى التالية للعام ١٤٩٢ "كان البشر يشكلون الحمولات الأساسية الخارجة من أوروبا"[٤٨]. وتُقدّر أعدادهم بين مئتي ألف وثلاثمئة ألف إبان القرن السادس عشر، غالبيتهم من الإسبان، وأربعمئة وخمسين ألفاً إبان القرن السابع عشر. ولما كان المستوطنون الأوائل غير مهيئين للعيش على الذرة الصفراء والفول والمنيهوت(٣٣)، فقد أدخلوا القمح والنبيذ وزيت الزيتون من إسبانيا في البداية، لكنها أزيحت في النهاية بسبب إحلال الواردات والتحولات الغذائية مع تكيف المستوطنين مع بيئتهم الجديدة. وكانت حمولة العودة الأساسية في الإبحار الهندي Carrera de Indias، كما أُطلِق على الخط العابر للأطلسي، تتمثل في الذهب على مدى السنوات الخمسين الأولى. وكانت التجارة بين إسبانيا والعالم الجديد تخضع للاحتكار من جانب النقابة التجارية بإشبيلية المعروفة باسم كونسولادو consulado. فكان "بيت التجارة" بإشبيلية يصرح بكل الصادرات والواردات ويديرها، من خلال السيطرة على المستودعات وأحواض السفن وتنظيم السفن والأطقم وجباية الضرائب والرسوم، بما في ذلك الخُمس الملكي على قيمة كل التجارة في السلع مع أمريكا. وعلى الرغم من أن إشبيلية كانت تقع على بعد عدة أميال على نهر الوادي الكبير المتعرج، فقد كانت اختياراً معقولاً لتكون صرة التجارة الإسبانية العالمية. فمنطقتها الداخلية الزراعية الغنية كانت مؤهلة لتموين السفن لرحلاتها الطويلة، فضلاً عن أن جماعة المصرفيين الإيطاليين الكبيرة، الجنويين في غالبيتهم، كانت مصدراً جاهزاً للتمويل. وكانت الضرائب الثقيلة والقيود الصارمة تشير ضمناً إلى

(٣٣) المنيهوت cassava نبات يُستخرَج من جذوره نشاء مغذ [المترجم].

وجود فرص وفيرة للتهريب، وهو الدور الذي تولته بلهفة قوى أوروبية أخرى، خاصة الهولنديين والبريطانيين. لكن الأخطر على أساطيل الكنوز القادمة إلى إسبانيا عبر الأطلسي كانت القرصنة الصريحة من جانب الملاحين المغامرين من الدول الشمالية المنافسة، من أمثال بيت هاين[٣٤] وفرانسيز دريك[٣٥].

ثمة وصف وتقييم للتجارة بين إشبيلية وأمريكا الإسبانية بأكبر قدر يمكن تخيله من التفصيل في دراسة أوجيت وبيير شونو Huguette and Pierre Chaunu المهمة المكونة من ثمانية مجلدات (١٩٥٥-١٩٥٩) التي تعتمد على السجلات المفصلة للرحلات الفردية لنحو خمسةٍ وعشرين ألف سفينة بين العامين ١٥٠٤ و١٦٥٠[٤٩]. ومن خلال معرفة السفن التي أبحرت في كل عام وحمولة كل سفينة، يمكن بناء تقييم تقريبي لحجم الشحن لكل عام عبر المحيط الأطلسي في الاتجاهين وبناء سلسلة زمنية مفصلة للسنوات من العام ١٥٠٤ إلى العام ١٦٥٠. يصوّر الشكل رقم (٤.٣) هذه النتائج بيانياً، تأسيساً على البيانات الملخصة في كتاب فيليبس[٣٦]. يبيّن الشكل نمواً ثابتاً تقريباً حتى نحو العام ١٦٢٠، باستثناء فترة هدوء إبان العقد السادس من القرن السادس عشر، وانخفاض حاد بعد كارثة الأسطول الإسباني في العام ١٥٨٨[٣٧]. ومن العام

---

(٣٤) بيت هاين Piet Heyn (٢٥ نوفمبر ١٥٧٧ إلى ١٨ يونيو ١٦٢٩) ضابط بالبحرية الهولندية وبطل شعبي في أثناء حرب الأعوام الثمانية بين المقاطعات المتحدة (هولندا) وإسبانيا، اشتغل بالقرصنة ضد السفن الإسبانية، من أشهر عملياته الاستيلاء على أسطول المعادن الإسباني في العام ١٦٢٨ [المترجم].

(٣٥) فرنسيز دريك Francis Drake (١٥٤٠ إلى ٢٧ يناير ١٥٩٦) ملاح وقرصان وتاجر عبيد وسياسي إنجليزي إبان الحقبة الإليزابيثية، اشتهر كبطل قومي للإنجليز بسبب أعمال القرصنة والسلب والنهب التي نفذها ضد الإسبان، ومنها غاراته على سانتو دومنيغو وقرطاجنة بكولومبيا الحالية وسان أوغسطين بفلوريدا الإسبانية، والأهم من ذلك غاراته على قادس وكورونا على التراب الإسباني، وكان أيضاً نائب أمير البحر للأسطول الإنجليزي الذي دمر أسطول الأرمادا الإسباني. منحته ملكة إنجلترا إليزابيث الأولى وسام الفروسية، بينما أعلن فيليب الثاني الإسباني مكافأة عشرين ألف دوكاتية لمن يأتي به حياً أو ميتاً [المترجم].

(٣٦) يوجد ملخص لهذه الدراسة باللغة الإنجليزية في Chaunu and Chaunu (1974).

(٣٧) في العام ١٥٨٨، أُرسِل الأسطول الإسباني أو الأرمادا أو "الأسطول الذي لا يقهر" بقيادة دوق مدينة شذونة لخلع إليزابيث الأولى ملكة إنجلترا ووضع حد لتدخل إنجلترا في الأراضي الواطئة الخاضعة لإسبانيا وأعمال القرصنة الإنجليزية في المحيطين الأطلسي والهادي، وبمجرد أن رسا الأسطول بالقرب

١٦٢٠ إلى العام ١٦٥٠، حدث تراجع في الحمولات، وإن زادت قيمتها، إذ يذهب الأخوان شونو إلى أن تصدير القمح والنبيذ والزيت من إسبانيا أفسح المجال للمنسوجات والصناعات الأخرى الأغلى ثمناً الآتية من إيطاليا وهولندا وإنجلترا. نتج ذلك عن إحلال الواردات الغذائية في المستعمرات الذي أشرنا إليه قبل قليل. ويستشهد الأخوان شونو بمثال "الزراعة الناجحة للكرم بجانب المحيط الهادي في واحات الساحل البيروفي الجافة، على الرغم من الحظر غير الفعال الذي حصلت عليه الأرستقراطية الأندلوسية[٣٨] من الحكومة الإسبانية الطيعة"[٥٠].

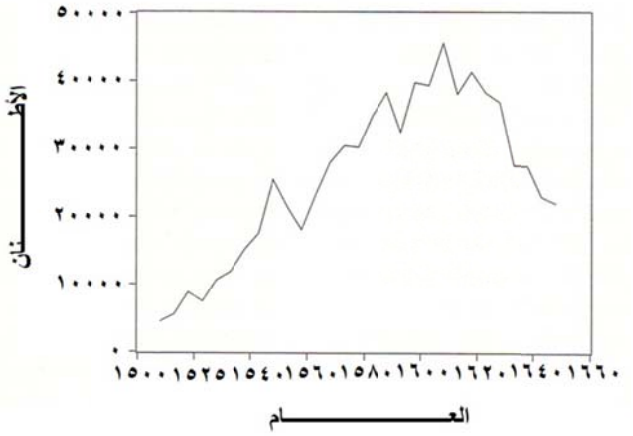

الشكل رقم (٤,٣). حجم التجارة مع جزر الهند الغربية الإسبانية إبان الفترة ١٥٠٦–١٦٥٠.

المصدر: Phillips (1990, pp. 43-44)

يذهب الأخوان شونو إلى أن القرن السابع عشر في إسبانيا الجديدة كان فترة استقرار ونمو قائمين على السوق الداخلي، في مقابل القرن السادس عشر المنفتح على

من الشاطئ، فتحت عليه السفن الحربية الإنجليزية النار فشتتت سفنه في البحر وطاردتها، واكتملت مأساة الأسطول الإسباني بالعواصف التي أغرقت كثيراً من سفنه التي لم يعد منها إلى إسبانيا غير ثمانين سفينة من أصل المئة والثلاثين التي أبحرت إلى إنجلترا [المترجم].

(٣٨) أندلوسيا Andalusia منطقة في جنوب إسبانيا تضم مقاطعات المرية وقادس وقرطبة وأولبة وجيان ومالقة وإشبيلية، واسمها مشتق من كلمة "الأندلس" العربية [المترجم].

الخارج أو القائم على التصدير اعتماداً على استغلال مناجم الفضة بالمكسيك وبيرو. ولا يقبل الأخوان شونو الفكرة القائلة بأن القرن السابع عشر الأكثر انكفاءً على الداخل أو اكتفاءً ذاتياً كان على أية حال فترة تراجع أو تدهور، بل يقولان إنه كان "عكس ذلك تماماً". وهذا الرأي مفيد بالنظر إلى الأطروحة الشهيرة حول "أزمة القرن السابع عشر" الأوروبية أو حتى العالمية التي قدمها إيريك هوبزباوم Eric Hobsbawm[٥١]. ودون الرجوع إلى هوبزباوم، أكد متخصصون في أمريكا اللاتينية، مثل ودرو بوراه Woodrow Borah وميردو ماكلاود Murdo Macleod أنه كانت هناك علامات على الكساد في إسبانيا الجديدة إبان القرن السابع عشر، تأسيساً على الركود السكاني ونقص القوة العاملة ومشكلات الإنتاج في الصناعة والزراعة. فيما يجد تيباسك وكلاين TePaske and Kleinأن العائدات من عدة مصادر في إسبانيا الجديدة ارتفعت على مدار القرن السابع عشر، ولم تنخفض، بما في ذلك إنتاج الفضة، على الرغم من حدوث بعض التقلبات[٥٢] وذلك يتناقض تماماً مع نظرية الأزمة في تطبيقها على إسبانيا الجديدة.

جمعت كارلا ران فيليبس Carla Rahn Phillips كثيراً من الأدلة المتاحة حول تجارة المحيط الأطلسي للإمبراطوريتين الأيبيريتين إبان الفترة ١٥٠٠-١٧٥٠، ونحن نعتمد بالدرجة الأولى على كتابها في التحليل التالي[٥٣]. قد يكون من الأنسب أن نبدأ ببعض الصادرات الأولية الأساسية غير المعادن النفيسة لأنها غالباً ما تُغفَل. كان من أوائل وأهم هذه الصادرات جلود الماشية. تعد هذه التجارة التصديرية بداية كاشفة لنمط التجارة عبر المحيط الأطلسي الذي تكشف كاملاً إبان القرون التالية. تتميّز تربية الماشية يقيناً بكثافة استخدام الأرض. وفي إسبانيا وبقية أوروبا كانت مراعي الماشية تتنافس مع الأغنام والفلاحة على الأرض، بينما لم تكن تحد الرعي أية قيود في الأراضي المفتوحة بجزر الكاريبي والمكسيك وأمريكا الوسطى مترامية الأطراف[٥٤]. وكانت جثث الحيوانات تُترك لتتعفن بعد سلخها بسبب عدم وجود طلب محلي كبير على اللحوم في ذلك الوقت، ولأن التصدير كان مستحيلاً بدون تبريد. وارتفعت صادرات الجلود من متوسط سنوي قدره نحو سبعة وعشرين ألفاً إبان الفترة ١٥٦١-

١٥٦٥ إلى الذروة بمتوسط نحو مئة وأربعة وثلاثين ألفاً إبان الفترة ١٥٨١-١٥٨٥ ، قبل أن تتراجع إلى اثنين وثلاثين ألفاً إبان العقد السادس من القرن السابع عشر، ثم إلى أقل من عشرة آلاف إبان العقد الأخير من ذلك القرن. ربما يرجع هذا التراجع إلى النمو في منافسة الفلاحة على الأرض التي أصبحت أكثر ندرة، وإلى الاستهلاك المحلي في هذا القرن الثاني من التطور الاستعماري الأكثر انكفاءً على الداخل. وبلغ متوسط القيمة السنوية لصادرات الجلود زهاء ثمانية وسبعين مليون مرابطي[٣٩] في أواخر القرن السادس عشر، وهو تقريباً ضعف قيمة صادرات السكر السنوية من أمريكا الإسبانية[٥٥].

كان من الصادرات الثمينة جداً في هذه الفترة القرمز أو الصبغة الحمراء التي كانت تُجمَع من الحشرات التي تتغذى على الصبار، إذ بلغت صادراتها مئة وخمسة وعشرين مليون مرابطي في العام، فيما كانت النيلة تجلب ثلاثين مليون مرابطي في العام. وبلغ إجمالي الصادرات لكل هذه السلع بعيداً عن المعادن النفيسة من المستعمرات الأمريكية إلى إسبانيا نحو ثلاثمئة وعشرين مليون مرابطي، كانت الصبغة الحمراء تشكل ٤٢٪ منها على الأقل[٥٦]، فيما كانت الصادرات من إشبيلية تساوي ثلاثة أضعاف هذا القدر تقريباً، أي نحو تسعمئة مليون[٥٧]. وكانت تجارة البضائع التي بلغت سنوياً إجمالي ١.٢ بليون مرابطي في الاتجاهين، ممكنة فقط بفضل المعادن النفيسة التي كانت تصدّر من المستعمرات إلى إشبيلية، وبخاصة الفضة بعد العقود الوسطى من القرن السادس عشر. فكما يقول الأخوان شونو، فإن "الجنون الاقتصادي المتمثل في نقل منتجات قليلة القيمة بتكلفة هائلة وغير مناسبة تماماً للنقل طويل المسافات بين إسبانيا وأمريكا كان ممكناً فقط بسبب الربحية العالية جداً لمناجم الفضة بالعالم الجديد"[٥٨]. فماذا نعرف حول حجم صادرات هذه المعادن النفيسة وقيمتها التي شكّلت القوة الدافعة لكثير من التطورات الاقتصادية والسياسية في ذلك العصر؟

---

(٣٩) المرابطي Maravedi هو اسم العملة في عدد من دول أمريكا اللاتينية، أخذوه عن الإسبان الذين أخذوه بدورهم عن دولة المرابطين الإسلامية بالمغرب والأندلس، حيث قلّد ألفونسو الثامن ملك قشتالة وليون الدينار المرابطي بعد سقوط الدولة المرابطية وأطلق عليه اسم "مرابطي ألفونسو" Marabeti Alfonso [المترجم].

ابتداءً بالذهب، يذكر فيليبس تقديراً قريباً من تقدير الأخوين شونو يتراوح بين اثنين وعشرين وسبعة وعشرين طناً شُحِنت إلى إسبانيا من الأمريكتين قبل العام ١٥٢٥، نُهِب معظمها من سكان جزر الكاريبي وإمبراطورية الأزتك(٤٠)، وبعد ذلك التاريخ كان الذهب يستخرج في الغالب من الرواسب الغرينية[٥٩]. ومر إنتاج الذهب وتصديره بسلسلة من الدورات القصيرة تبعاً لاستغلال مناطق متتابعة وتركها، بداية من سانتو دومينغو التي بلغت ذروتها في العام ١٥١٠، تلتها بورتوريكو وكوبا وبنما التي بلغت ذروتها في العام ١٥٢٠، ثم المكسيك وأخيراً بيرو في نحو منتصف القرن. ربما كان الأهم كثيراً من ذلك هو اكتشاف "جبل الفضة" الضخم في بوتوسي Potosi في مرتفعات الأنديز فيما يعرف حالياً ببوليفيا في نحو العام ١٥٤٥. كان هذا المنجم يقع على ارتفاع عالٍ جداً، أكثر من ألف ومئتين قدم، ولذلك كان جمع القوة العاملة اللازمة مشكلة كبرى. ولذلك أدخل نائب الملك في بيرو نظاماً عُرِف باسم الميتا mita، بمقتضاه كان سُبع الذكور بين عمر الثامنة عشر والخمسين في كل مقاطعة يؤخذون سنوياً بالقرعة للخدمة في المنجم، وبذلك جُمِعت قوة عاملة عددها ثلاثة عشر ألفاً وخمسمئة رجل، كان ثلثهم يعملون في المنجم في أي وقت[٦٠]. أما العمال الباقون فكانوا عمالاً أحراراً يعملون بالأجر، وإن كان في ظروف عمل قاسية. وبلغ إجمالي سكان بوتوسي زهاء مئة وستين ألف نسمة، ما جعلها أكبر تجمع للسكان في أمريكا الإسبانية وأحد أكبر التجمعات السكانية في العالم خارج الصين.

---

(٤٠) كان الفاتحون الإسبان لصوصاً غادرين بكل معنى الكلمة، وكانت أعينهم على الذهب والفضة قبل أي شيء آخر. ومن الحكايات الكاشفة في هذا الصدد أن فرانسيسكو بيزارو في أثناء غزو مملكة الإنكا بجبال الإنديز، أسر إمبراطور الإنكا أتاهوالبا Atahualpa، وطلب فدية لإطلاق سراحه. وبالفعل قدم شعب الإنكا للفاتحين فدية من المشغولات الذهبية ملأت حجرة بعرض سبعة عشر قدماً وطول اثنين وعشرين قدماً وارتفاع تسعة أقدام، لكن الإسبان خانوا العهد وأعدموا الإمبراطور بالمخنق الحديدي. ومن جانبه، أظهر شعب الإنكا إدراكاً حاداً للعقلية الإسبانية اللصوصية في انتقامهم لإعدام زعيمهم، حيث قتلوا رهينة إسبانية بصب الذهب المصهور في حلقه وهم يتهكمون قائلين: "اشرب حتى تمتلئ، فمنه هنا ما يكفي لإشباع حتى أشره الناس" (وليام بيرنشتاين (٢٠١٢). مولد الوفرة – كيف تشكل رخاء العالم الحديث، ترجمة مصطفى قاسم، الرياض: مركز الترجمة بجامعة الملك سعود، ص ٢٤١.) [المترجم].

يقدم الشكل رقم (٤,٤) تمثيلاً بيانياً لأرقام وارد باريت Ward Barrett لإجمالي الإنتاج والصادرات الأمريكية من المعادن النفيسة. أوضحت الأعمال المبكرة، مثل هاملتون[٦١]، أن الشحنات الأمريكية إلى أوروبا انخفضت إبان القرن السابع عشر، وكان ذلك أحد العوامل التي أوردها هوبزباوم في مقالته الشهيرة كدليل على الأزمة، لكن باريت يقبل حكم ميتشل مورينيو Michel Morineau[٦٢] بأن الصادرات واصلت الارتفاع، ومعظم الخبراء الآن يلقبون ذلك[٦٣]. توضح بيانات باريت ارتفاعاً في الناتج من نحو خمسة وأربعين طناً من مكافئ الفضة سنوياً في الربع الأول من القرن السادس عشر إلى مئة وخمسة وعشرين طناً في الربع الثاني، ثم مئتين وثلاثين طناً في الربع الثالث، ثم مئتين وتسعين طناً في الربع الأخير. وما كان لهذه الزيادة الكبيرة في الإنتاج، وبالتالي التصدير، أن تحدث لولا تجديد تقني كبير، تمثل في عملية ملغم الزئبق لفصل المعدن عن الخام. كان الزئبق يأتي من وانكاوليكا Huencavelica ببيرو، وكان يستورد أيضاً من المادن Almaden بإسبانيا. وكان ما بين ٢٠ و٣٠٪ من السبائك المسجلة رسمياً التي تعبر المحيط الأطلسي تخص التاج، وهي حصته في المناجم، كانت تساوي نحو أربعة وعشرين بليون مرابطي في مجموعها من العام ١٥٥٥ إلى العام ١٦٠٠[٦٤].

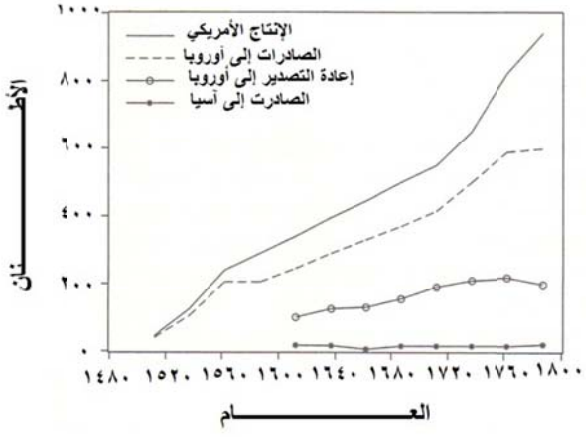

الشكل رقم (٤,٤) .الإنتاج والصادرات الأمريكية من المعادن النفيسة إبان الفترة ١٥٠١–١٨٠٠ (المتوسط السنوي بالأطنان).

المصدر: Barrett (1990, pp. 242-43)

وبالتحول إلى البرتغال، نجد أن دخولها إلى العالم الجديد حدث مصادفة. ففي أثناء الرحلة البحرية التي قصد بها القائد بيدرو ألفاريس كابرال Pedro Alvares Cabral الهند في العام ١٥٠٠، دار غرباً بدرجة كبيرة في المحيط الأطلسي ليجد نفسه فيما يسمى الآن البرازيل التي اعتقد أنها جزيرة أخرى. واشتقوا اسم المنطقة من أشجار برازيلوود brazilwood [أشجار البرازيل] التي تنمو هناك بوفرة وتستخرج منها صبغة ثمينة. في البداية، تعاقد التاج على استغلال أشجار البرازيل والموارد الطبيعية الأخرى مع ائتلاف من التجار، لكن كانت هناك سيطرة مباشرة من التاج من العام ١٥٠٦ إلى العام ١٥٣٤ بفضل إنشاء المصانع أو المراكز التجارية المَلكية والترخيص للتجارة الخاصة مع السكان المحليين. وحاولت السفن الفرنسية أن تدخل التجارة هي الأخرى، ما أدى إلى نزاعات مع البرتغاليين. وفي العام ١٥٣٤، حدث تغيير سياسي جذري في النموذج المعتاد لجزر المحيط الأطلسي. فأُنشِئت اثنتا عشرة قيادة، مُنِح كل منها مساحات واسعة من الساحل وكذلك الحق في التوغل في الداخل. وتمتع قائد المنطقة الواحدة بسلطة كبيرة على الأرض المخصصة له، في مقابل الالتزام بتسليم التاج أنصبة محددة من الضرائب والدخول الأخرى. وبداية من العام ١٥٤٩ فصاعداً، أخذ التاج يعيّن حاكماً لتنسيق نشاطات المستوطنين ومنع المتطفلين الفرنسيين وغيرهم من الحصول على موطئ قدم. واستخدم البرتغاليون أيضاً العنف ضد القبائل الهندية التي أبيدت كلها تقريباً في تلك الفترة.

وسرعان ما أصبحت زراعة قصب السكر الدعامة الاقتصادية الأساسية لهذه الأقاليم، حيث انتشرت المعامل على امتداد الريف تحيطها حقول القصب. ومع ازدياد الطلب في أوروبا، تسارع النمو كثيراً. فيذكر جونسن Johnson أنه في العام ١٥٧٠ كان يوجد عشرون ألف شخص أبيض في البرازيل وستون معمل سكر، بلغا في العام ١٥٨٥ ثلاثين ألفاً ومئة وعشرين على التوالي[٦٥]. ونما إنتاج السكر سريعاً ليصل إلى ما بين خمسة عشر وعشرين ألف طن من أكثر من مئتي معمل إبان العقد الثالث من القرن السادس عشر وفقاً لمورو Mauro الذي ذكر أيضاً وجود ما بين ثلاثة عشر وخمسة عشر ألف عبد أفريقي في البرازيل في العام ١٦٠٠، وأن العبيد كانوا

يستوردون بمتوسط أربعة آلاف عبد سنوياً في النصف الأول من القرن السابع عشر[٦٦]. كان العبيد يشكلون نحو ٧٠٪ من القوة العاملة بمعامل السكر. وارتباط العبيد بالسكر في العالم الجديد كان استكمالاً معتاداً للعبودية التي رأينا أنها كانت سمة لإنتاج السكر منذ فترة طويلة. في ذلك الوقت، كان أغلب العبيد يستوردون من أنغولا على الساحل الجنوبي الغربي لأفريقيا، وكان معدل الوفيات بين العبيد على السفن الصغيرة المزدحمة يتجاوز ٥٠٪ في العادة. وكانت بيرنامبوكو Pernambuco أسرع نمواً وأكثر ازدهاراً بين المناطق الانثني عشرة الأصلية، إذ ضمت ٤١٪ من السكان البيض و٥٥٪ من المعامل في العام ١٥٨٥. واشتهر المستعمرون في هذه المنطقة بإنفاق أرباحهم بإسراف على الواردات الفاخرة من الوطن الأم. وكانت باهيا Bahia منطقة مزدهرة أخرى، وفيها أنشا الفرنسيون ريو دي جانيرو، ثم استولى عليها البرتغاليون في العام ١٥٦٥، وبعدها تطورت بسرعة كبيرة.

المحيط الهادي وشرق آسيا

كان الامتداد المائي الذي رآه بالبوا من على إحدى القمم في دارين وضمّه لممتلكات تاج قشتالة يُعرَف في ذلك الوقت باسم البحر الجنوبي Mar del Sur. ومؤكد أن بالبوا لم تكن لديه فكرة عن مداه الشاسع أو ما يكمن فيه أو على شواطئه المقابلة، مع أنه كان يعرف بالطبع أنه يصل في النهاية إلى آسيا. كان ماجلان محارباً برتغالياً قوياً في غزوات بلاده في المحيط الهندي، لكنه كان في خدمة الإسبان حين قام برحلته البحرية التي استهدفت الوصول إلى جزر التوابل[٤١] من الاتجاه المعاكس لذلك الذي كان البرتغاليون يتخذونه عادة. ويبدو أن الدوران البحري حول الكرة الأرضية لم يكن هدفاً في ذاته، بل كان الهدف مجرد البحث النفعي عن طريق بديل للتجارة. غادر ماجلان في العام ١٥١٩ بأربع سفن ومائتين وسبعة وثلاثين رجلاً، واكتمل الدوران البحري في العام ١٥٢٢ بسفينة واحدة فقط، هي فيكتوريا، وثمانية عشر رجلاً بقيادة

(٤١) جزر التوابل Spice Islands اسم آخر لجزر الملوك بالأرخبيل الإندونيسي، سُميت به نظراً لاشتهارها بإنتاج التوابل [المترجم].

سيباستيان ديل كانو Sebastian del Cano، بعد أن قُتِل ماجلان في مناوشة على جزيرة سيبو Cebu قبل النزول على جزيرة تيدور وجمع حمولة ثمينة من التوابل. مُنِح ديل كانو شعار نبالة تظهر عليه القرفة وجوز الطيب والقرنفل وتتوجه الكرة الأرضية، في إعلان أنه أول من طاف العالم بحرياً.

وسرعان ما ثبت أن استغلال جزر التوابل لم يكن سهلاً، لأن البرتغاليين كانوا مستقرين فعلاً في جزيرة تيرنيت المنافسة[٤٢]. واندلعت الأعمال العدائية بين المتنافسين المسيحيين، واستعان كل طرف بحليف محلي مسلم، هما سلطانا تيرنيت وتيدور. ولم تقتصر النزاعات على المستويات العسكرية والتجارية والسياسية، بل امتدت إلى الكوزموغرافيا أيضاً، إذ قسم البابا بمقتضى معاهدة تودريسيلاس Tordesillas للعام ١٤٩٤ الأراضي المكتشفة حديثاً بين القوتين الأيبيريتين بناءً على خط الطول ٢٧٠ الواقع على بعد عدة فراسخ غرب جزر الرأس الأخضر، فأعطيت إسبانيا كل شيء غرب هذا الخط وأعطيت البرتغال كل شيء شرقه. والسؤال هو على أي جانب من خط توردیسیلاس الممتد عبر العالم كانت تقع جزر التوابل؟ أدرك شارل الخامس الإسباني أنه أياً كانت حقوقه القانونية، فإن البرتغاليين كانوا يتمتعون بميزة قرب مالاكا منهم، ولذلك كان حكيماً حين قَبِل التسوية في مقابل ثلاثمئة وخمسين ألف دوكاتية بموجب معاهدة سرقسطة Saragossa في العام ١٥٢٩، ما أدى إلى اشمئزاز كثير من رعاياه.

أطلق سبيت Spate على المجلد الأول من تاريخه العظيم للمحيط الهادي اسم "البحيرة الإسبانية"[٦٧]، وكانت تلك هي الحال فعلاً على مدى قرنين تقريباً بعد ماجلان، على الرغم من الكثير من التحديات. بيد أن الميزة الاقتصادية الفورية التي جنتها الإمبراطورية الإسبانية من كل الرحلات البطولية التي قام بها ملاحوها في

(٤٢) تذكر أن البرتغاليين وصلوا إلى ميناء كاليكوت الهندي على ساحل مالابار في مايو ١٤٩٨ بقيادة فاسكو دا غاما عن طريق رأس الرجاء الصالح والمحيط الهندي، واستقروا في الهند وأنشأوا دولة الهند، وتوسعوا في جزر الأرخبيل الإندونيسي وأنشأوا قلاعاً في تيرنيت وتيدور وأمبون وغيرها، في حين جاء القادمون الجدد- الإسبان- عن طريق المحيط الهادي بالدوران حول الأرض، بقيادة برتغالية أيضاً، هو ماجلان [المترجم].

الامتداد المائي الشاسع بحثاً عن الكنوز والتوابل والأرواح لهدايتها إلى الدين الحق[٤٣]، ليست واضحة بحال من الأحوال. ففرصة الربح الوحيدة التي استمرت لقرون تمثلت في مبادلة الفضة الأمريكية بالحرير الصيني، فضلاً عن الكثير من المواد الأخرى الأقل قيمة، وهو ما كان يحدث عبر مانيلا بالفلبين التي كانت المستعمرة الإسبانية الوحيدة في المحيط الهادي. وقد سُميت هذه الجزر بهذا الاسم في العام ١٥٤٢ تكريماً للإمبراطور فيليب الثاني المستقبلي، لكن الاحتلال والاستيطان الفعاليْن لم يكونا إلا بحملة ميغيل لوبيز دي ليغاسبي Migel Lopez de Legazpi التي أُرسِلت من المكسيك في العام ١٥٦٤.

استولى ليغاسبي على موقع مانيلا بمينائها الطبيعي الرائع من حاكم مسلم محلي في العام ١٥٧١، ومدّ سيطرته على معظم الجزر الرئيسة قبل موته في العام ١٥٧٢. وكان الاستثناء الواضح هو جزيرة ميندناو بسبب الوجود الإسلامي القوي فيها الذي استمر إلى يومنا هذا. ودارت عجلة التنصير سريعاً تحت القيادة المستنيرة للراهب الأوغسطيني والمستكشف أندريس دي أوردانيتا Andres de Urdaneta. كان صينيون كُثر قد انجذبوا إلى جزر الفلبين قبل الوصول الإسباني، لكن ظهور الغليونات القادمة من أكابولكو في مانيلا من العام ١٥٧١ فصاعداً كان حدثاً فاصلاً في تاريخ التجارة العالمية، حيث أغرى سيلاً كبيراً من المهاجرين الصينيين من اليابسة الآسيوية، على الرغم من إلزامهم بشراء إذن من السلطات الإسبانية لكي يكون دخولهم قانونياً. كانت المدينة المسوّرة تضم الإداريين والجنود ورجال الدين الإسبان وكذلك الفلبينيين الذين

(٤٣) كان نشر الكاثوليكية أو الدين الحق في رأي أتباعها الإسبان والبرتغاليين أحد الأسباب المعلنة للاستكشاف والفتوحات. وقد نجحوا في ذلك نجاحاً مبهراً بإدخال من بقي من الأمريكيين الأصليين وكل سكان الفلبين ما عدا الأقلية المسلمة، وكثيراً من سكان شرق وجنوب شرق آسيا في المسيحية. وكان مما أخذه بعض المؤرخين الإسبان على بلدهم في ذلك أنها عبرت البحار والمحيطات لهداية الشعوب غير الكتابية إلى الكاثوليكية، بينما فشلت في هداية المسلمين على أراضيها المعروفين باسم المورسكيين الذين أدخلتهم قسراً في الكاثوليكية وأخضعتهم لمحاكم التفتيش، دون أن تقدم لهم تعليماً دينياً حقيقياً. ونجح أوروبيون آخرون في نشر المسيحية في أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى. وقد أوشك البرتغاليون على إدخال الشعب الياباني كله في المسيحية لولا ثورة الفلاحين (١٦٣٧)، كما سيرد لاحقاً في هذا الكتاب، وكذلك أوشكت القوى الأوروبية على إدخال الشعب الصيني في المسيحية لولا ثورة الملاكمين (١٨٩٩- ١٩٠١) [المترجم].

اعتنقوا المسيحية، تحيط بهم خارج أسوار المدينة جماعة صينية أكبر عدداً من الصناع والتجار، لم يعتنق المسيحية سوى قلة منهم. ومع سيطرة سلالة مينغ على كامل التراب الصيني والهجمات المتكررة من جانب القراصنة وأمراء الحرب الصينيين المرعبين، لم يكن مفاجئاً أن تتحول الإدارة الإسبانية إلى النظر بعين الخوف إلى المهاجرين الصينيين، خشية أن يشكلوا نوعاً من "الطابور الخامس"، على الرغم من ضرورتهم للحيوية الاقتصادية لمانيلا.

نتناول الآن موقف السلطات في إمبراطورية مينغ من التجارة الخارجية والاحتكاك مع الأجانب عموماً. كان الانفتاح على الاتصال مع الخارج في العقود الأولى من القرن الخامس عشر، حين نُفِذت رحلات زينغ هي الكبرى، قد أصبح شيئاً من الماضي. لكن الأرباح الممكنة من التجارة بين جنوب شرق آسيا والصين كانت كبيرة جداً لدرجة أن فرص انتزاع العوائد وجمع الرشاوى كانت أكبر من أن يقاومها المسؤولون في غواندونغ Guandong والمناطق الساحلية الأخرى. وضمن هذا الإطار للتجارة غير القانونية رسمياً، وإن كانت مقبولة ضمناً، بدأ البرتغاليون العمل بعد استيلائهم على مالاكا في العام ١٥١١.

فبعد محاولات خرقاء وعقيمة من جانب البرتغاليين لشق طريقهم بالقوة إلى تجارة الصين، توصلوا في النهاية إلى تسوية فعالة، عقدها رجلان حكيمان، تاجر برتغالي خاص يدعى ليونيل دي سوسا Leonel de Sousa ومسؤول صيني يدعى وانغ بو Wang Po. وكما جاء في رواية ويلز Wills لهذه التسوية، فإن الصين أعطت للبرتغاليين مكاناً على مصب نهر بيرل Pearl لبناء مخازن وكنيسة، فيما لم يكن مسموحاً لهم بالوصول المباشر إلى أي مصدر للغذاء إلا ما يعطيه لهم الصينيون[٦٨]. إضافة إلى دفع رسوم أو ضرائب سنوية على التجارة، أو على جزء منها على الأقل، كان يُقسَم بين المسؤولين المحليين والحكومة المركزية. ولم يكن مسموحاً للبرتغاليين بالسماح للغرباء، وبخاصة اليابانيين الخطرين، بالدخول إلى منطقتهم المحددة بدقة. وكانت تلك المنطقة هي الأصل في العام ١٥٥٧ للقاعدة البرتغالية الشهيرة في مكاو التي لم تُعَدْ إلى الصين رسمياً إلا بعد أكثر من أربعة قرون.

كان من حسن حظ البرتغاليين أن فُتِح لهم منجم حقيقي للثروة تمثل في "جنة الوسيط" التي تمكنوا فيها من استغلال التجارة الصينية اليابانية. فالصين كانت تمتلك ميّزة نسبية قوية جداً في الحرير، سواء في شكله الخام أو كأنسجة وملابس، كان عليها طلب كبير في اليابان، على الرغم من وجود قطاع حرير ياباني محلي ضخم، لكنه كان رديء النوعية. وكانت اليابان في ذلك الوقت تفتتح مناجم فضة وفيرة كان عليها طلب كبير في الصين، للاستخدامات النقدية وغيرها. وكانت المشكلة تكمن في تحقيق هذا التبادل المفيد للطرفين، لأن سلطات إمبراطورية مينغ كانت ترفض السماح لأي ياباني بالمجيء إلى الصين أو لأي صيني بالذهاب إلى اليابان، لما نسميه اليوم أسباب تتعلق "بالأمن القومي". وبذلك أتيحت لمانيلا ومكاو الفرصة لتزويد الصينيين بالفضة في مقابل الحرير الصيني: مانيلا من خلال الغليونات القادمة من أكابولكو، ومكاو بالفضة القادمة من اليابان.

ففي كل عام، كانت تبحر من غوا إلى مالاكا "سفينة ضخمة" واحدة على الأقل، من نوع القرقور، مصنوعة من خشب الساج المالاباري، محملة بألف وستمئة أو حتى ألفي طن من الأقمشة والمصنوعات الهندية الأخرى. كانت هذه البضائع تباع في مقابل التوابل وخشب الصندل ومنتجات جنوب شرق آسيا الأخرى التي كانت تُشحَن إلى مكاو، حيث كانت تُبادَل بالحرير. وبعد ذلك، كانت السفينة تتجه إلى الموانئ اليابانية، حيث كان الحرير يباع في مقابل الفضة التي كانت تعاد بعدها إلى مكاو. وأخيراً، كانت التوابل تُشترى ثانية في مالاكا للعودة بها إلى غوا، ومنها كانت تُرسَل بسفن أخرى إلى أوروبا حول رأس الرجاء الصالح. وتكمن الروعة في هذا الترتيب في أن الإسهام المادي البرتغالي كان صفراً، فلم يكونوا يقدمون غير تحمل الخطر العالي المتمثل في الرحلات وتوفير "الخدمات الإدارية الأساسية". فكانت السفن تُشيّد في الهند، وكانت الأطقم، بما تحتويه المرشدين ومديري الدفة، في غالبهم من الآسيويين أو الأفارقة، فيما كانت السلع المتبادلة كلها أو معظمها من أصول آسيوية.

كانت أرباح الرحلة الواحدة تكفي حامل الرخصة مدى الحياة. وفي كل عام حتى العام ١٦١٨، كانت "السفينة الكبيرة من أماكون" Amacon وهو الاسم الذي أطلقه

الإنجليز على سفينة القرقور المبحرة من مكاو، تحمل حمولات من الحرير الطبيعي والمنسوجات الصينية إلى ناجازاكي، لتعود بثمانية عشر أو عشرين طناً من الفضة وفقاً لبوكسر[٦٩]. وبعد العام ١٦١٨، وُجِد أنه من الأفضل الاستعاضة عن سفينة واحدة كبيرة كل عام بست أو سبع سفن أصغر من السفن الأسرع المعروفة باسم الغليون لتفادي الاعتراض من جانب السفن الهولندية والبريطانية كثيفة التسليح التي كانت تسعى لأخذ مكان البرتغاليين في التجارة الصينية – اليابانية المربحة. يقول بوكسر إن "الأرباح من تجارة مكاو–اليابان ظلت كبيرة حتى النهاية"، بل وكانت كمية الفضة المصدّرة في العام ١٦٣٩ ثلاثة أضعافها إبان العقد الأول من القرن[٧٠]. ويذكر أتويل Atwell أن الأب اليسوعي جواو رودريغيز Joao Rodrigues المترجم المفضل لتوكوغاوا إيئه- ياسو(٤٤) قال إنه إبان العقد الخامس من القرن السادس عشر كانت طبقة النبلاء نفسها لا تلبس الحرير إلا نادراً، بينما في وقت هيديوشي (إبان العقدين الأخيرين من القرن السادس عشر) "كانت الأمة كلها تلبس عباءات حريرية، بل أن الفلاحين وزوجاتهم كانت لديهم أوشحة حريرية، والأفضل حالاً بينهم كانت لديهم عباءات حريرية"[٧١].

كانت اليابان في النصف الثاني من القرن السادس عشر تخرج من فترة "الحرب الأهلية" الطويلة التي كان السادة الإقطاعيون فيها يكافحون لإزاحة شوغونية أشيكاغا Ashikaga الضعيفة الموجودة في السلطة منذ القرن الرابع عشر. وكان أنجح المطالبين بالسلطة هو أمير الحرب العظيم أودا نوبوناغا Oda Nobunaga الذي احتفظ بعلاقات طيبة مع المبشرين اليسوعيين والتجار البرتغاليين. كان اليابانيون قد تبنوا الأسلحة النارية بعد ظهورها لأول مرة في جزيرة تانغاشيما Tanegashima التي غرقت قبالتها سفينتان برتغاليتان مسلحتان ببنادق القربينة في العام ١٥٤٣. اشترى حاكم محلي هذه الأسلحة وقام صانع أسلحة بنسخها، وسرعان ما تبنت معظم القوات المتصارعة هذا

(٤٤) توكوغاوا إيئه- ياسو Tokugawa Ieyasu مؤسس شوغونية تاكوغاوا Tokugawa Shogunate، وهي النظام الإقطاعي الذي حكم اليابان من العام ١٦٠٣ إلى العام ١٨٦٧، وتوالى على الحكم فيه شوغونات أو حكام عسكريون من أسرة توكوغاوا، وتعرف هذه الفترة في تاريخ اليابان أيضاً باسم فترة إدو Edo نسبة إلى اسم العاصمة الذي تغير في العام ١٨٦٤ إلى طوكيو [المترجم].

السلاح واستخدمته في المعارك. وأدى الانتشار السريع للأسلحة النارية إلى السرعة في حسم المعارك، واستخدمها نوبوناغا بطريقة فعالة لهزيمة منافسيه الرئيسين قبل أن يغتاله جنرال غادر في العام ١٥٨٢. وفي ذلك يقول جون ويتني هول John Whitney Hall إن "استيراد البندقية ربما عجّل التوحيد النهائي للبلاد بعدة عقود"[٧٢].

أما الشيء الآخر الذي استورده اليابانيون من البرتغاليين فكان المسيحية والقديس فرانسيز شافير Francis Xavier ومجموعة صغيرة من اليسوعيين حققت نجاحاً باهراً في هداية اليابانيين إلى المسيحية، منهم كثيرٌ من القادة المؤثرين. أعجب القديس فرانسيز كثيراً باليابانيين، وقال إنهم "أفضل الشعوب التي اكتشفها حتى الآن، وأنه يعتقد أنه لا يوجد بين الكفار شعب أفضل منهم"[٧٣]. واليابانيون من جانبهم يبدو أنهم ادخروا احتراماً كبيراً لبعض المبشرين اليسوعيين والنبلاء البرتغاليين الذين قابلوهم، والذين كانت قيم الشرف الشخصي والمهارة العسكرية لديهم تتفق مع أخلاقيات الساموراي لدى اليابانيين. وقام سيد إقطاعي بارز يدعى أومورا سوميتادا Omura Sumitada من كيوشو، الذي كان من أوائل اليابانيين في منزلته الذين تحولوا إلى المسيحية، بمنح البرتغاليين موقع ميناء ناجازاكي في العام ١٥٧١، وهو العام نفسه الذي أسس فيه الإسبان مانيلا. وكان نوبوناغا نفسه كريماً مع اليسوعيين، ربما لأنه رأى فيهم ثقلاً موازناً لتأثير الطوائف البوذية التي كانت من أمقت الأعداء إلى قلبه.

خَلَف نوبوناغا شخصية أعظم، هو تويوتومي هيديوشي Toyotomi Hideyoshi الذي أكمل التوحيد السياسي للبلاد في الوقت الذي لقي فيه حتفه في العام ١٥٩٨. وحدث الاستتباب النهائي بعد أن هزم توكوغاوا إيئه - ياسو كل من تبقى من المناوئين في العام ١٦٠٠، وأسس شوغونية دامت حتى إعادة ميجي(٤٥) في العام ١٨٦٨. ويبدو أن الاقتصاد الياباني نما سريعاً بفضل عملية توحيد البلاد[٧٤]. وأعطى استقرار الممتلكات وترشيد حقوق المِلكية مزيداً من الاستقلالية والحافز للفلاحين لزيادة الإنتاجية الزراعية، واستفادت التجارة من إلغاء المكوس وتحسين النقل. وذلك يفسر

(٤٥) حول فترة إعادة ميجي أو الإصلاح في اليابان، راجع حاشية سابقة للمترجم [المترجم].

الزيادة الواضحة في الطلب الياباني على الحرير الأعلى نوعية من الصين، ويفسر أيضاً ربحية رحلات مكاو- ناجازاكي.

تلقت هذه التجارة ضربة قاتلة، حين استن توكوغاوا سياسة العزلة إبان العقد الرابع من القرن السابع عشر وطرد كل البعثات المسيحية بقسوة، وحصر الاتصال بالغرب في عدد صغير من الهولنديين على جزيرة ديشيما Deshima الصغيرة المجاورة لناجازاكي. ثمة ثلاث مراحل مرّ بها التفاعل المعقد بين البرتغاليين واليابانيين في "القرن المسيحي"، كما سُمي ذلك القرن من تاريخ اليابان. فمن العقد الخامس من القرن السادس عشر إلى أواخر العقد التاسع من القرن السابع عشر كان اليابانيون متلهفين إلى التجارة، وكانوا أيضاً متقبلين للتأثير الديني والثقافي من ضيوفهم. وفي العام ١٥٨٧، يبدو أن هيديوشي أدرك فجأة أنه مهما كانت فوائد التجارة فإنها لا تعوض احتمال أن يؤدي الوعظ اليسوعي إلى تقويض دعائم المؤسسات الثقافية والاجتماعية للبلاد. ولذلك حاول في السنوات الباقية من حكمه أن يفصل التجارة عن النشاط التبشيري، فسمح بالأولى ومنع الأخير، وإن لم يُفرَض ذلك بشكل صارم دائماً، وهو المنهج التي اتبعه الشوغونان الأولان بشوغونية توكوغاوا حتى العام ١٦٢٣. ورأى الشوغون الثالث إيئه- ميتسو Iemitsu (١٦٢٣-١٦٥١) أن البرتغاليين كانوا يأتون بالكهنة إلى البلاد متنكرين في هيئة تجار أو غيرهم من غير رجال الدين، ما هدد الاستقرار السياسي للبلاد، ولذلك قرر طردهم جميعاً وقصر التجارة الخارجية على التجار الهولنديين والصينيين في ناجازاكي. ربما كانت ثورة الفلاحين في العام ١٦٣٧ المعروفة بثورة شيمابارا Shimabara التي كانت صرخة الحرب فيها بين المحاربين المسيحيين اليابانيين في جانب الفلاحين هي "سانتياغو" (القديس جيمس)[٤٦]، ربما كانت هذه

(٤٦) سانتياغو أو القديس جيمس، أو يعقوب بن زبدي كما يُعرَف في المصادر العربية، أحد الحواريين الاثني عشر للسيد المسيح، قُتِل في العام ٤٤ بأمر من الملك هيرودس أكريبا. تقول أسطورة إسبانية إنه ظهر في معركة كلافيخو Clavijo الأسطورية التي يفترض أنها وقعت في الثالث والعشرين من مايو عام ٨٤٤ بين النصارى بقيادة راميو الأول ملك أستورياس Ramio I of Asturias وأمير قرطبة، لكي يقدم العون والمدد للنصارى على المسلمين الذين كانوا يفوقونهم عدداً وعدة، وانتصر النصارى- كما في الأسطورة- ولذلك أصبح القديس يعقوب "حامي إسبانيا"، وظهرت له نقوش وهو يقتل الأندلسيين

الثورة أيضاً تأكيداً على الخطر المتأصل في الِدين المستوّرد. وبدلاً من ذلك، يقدم سانسوم Sansom وجهة نظر جديرة، مؤداها أن سياسة العزلة كانت في حقيقتها أداة لضمان احتكار التجارة الخارجية للشوغونية ومنع السادة الإقطاعيين المنافسين المحتملين من تحقيق الثراء عن طريق التجارة[٧٥]. وكانت العزلة بالطبع ضربة موجعة لمكاو، لكن تلك المدينة التجارية المرنة استطاعت أن تنجو منها، فتحوّلت إلى مانيلا كمصدّر بديل للفضة. وكما يقول باري، فإن مانيلا "الواقعة في منتصف العالم كانت ملتقى ورثة كولومبس وفاسكو دا غاما، وانتصاراً للاتصال البحري في وجه الانعزال"[٧٦].

كانت التجارة عبر المحيط الهادي تقتصر تقريباً على التجارة بين المستعمرات الأمريكية الإسبانية والصين عبر مانيلا، وهي التجارة التي ارتبطت لفترة طويلة في الأذهان بغليون مانيلا الأسطوري، وذلك أيضاً هو عنوان الرواية الكلاسيكية لشورز Schurz لهذه الأحداث الفريدة في تاريخ التجارة العالمية[٧٧]. كان التبادل الأساسي بين القارتين هو الحرير الصيني وكذلك الخزف وتوابل جنوب شرق آسيا، في مقابل الفضة التي كانت تتدفق من مناجم بوتوسي والمكسيك. فكان التجار الصينيون، في الغالب من مينائي أموي Amoy (هسيا مين) وكانتون الجنوبيين، يأخذون الحرير الطبيعي والأنسجة والملابس إلى مانيلا، حيث كانوا يبيعونها في مقابل الفضة، فيما كانت هذه البضائع تشق طريقها للبيع في العالم الجديد.

أو المغاربة المسلمين، وأطلق عليه اسم "جيمس قاطع رقاب الأندلسيين" Saint James the Moorslayer. وكان ضريحه في شنت ياقوب أو سانتياغو دي كومبوستيلا Santiago de Compostela بمنطقة جليقية بشمال غرب إسبانيا مقصداً للحجيج النصارى، ولذلك لعب هذا الضريح والحج إليه إبان القرن التاسع دوراً كبيراً في حشد الدعم النصراني لحروب استرداد إسبانيا، التي كان "القديس جيمس قاطع رقاب الأندلسيين" أيقونتها ورمزها، فكانت نقوشه حاضره في كل المعارك، وكان الجنود النصارى يصرخون باسمه في أثناء القتال، في مقابل استصراخ محمد من جانب المسلمين. وظل القديس جيمس أيقونة الحرب الكاثوليكية ضد المسلمين حتى أيامنا، إذ وُزِّعت على الجنود الإسبان والأمريكيين اللاتينيين الذين شاركوا في غزو العراق في العام ٢٠٠٣ صلبان للقديس جيمس. ومع ذلك كله، فمن الغريب أن تدوي صيحات القديس جيمس في المعارك على ألسنة اليابانيين وفوق جزرهم البعيدة على الجانب الآخر من الكرة الأرضية [المترجم].

كانت المشكلة بالنسبة للسلطات الإسبانية في شبه الجزيرة الأيبيرية وفي المستعمرات الأمريكية تتمثل في تحديد حجم التجارة الذي كان في مصلحتهم. فصناعة الحرير كانت موجودة في إسبانيا والمكسيك، حيث أدخلها كورتيز نفسه بنجاح بعد الغزو مباشرة. ولذلك كان هناك الطلب المتوقع على الحماية من جانب فرعي هذه الصناعة في الوطن وفي المستعمرات. كما كانت هناك ممانعة في تحويل قدر أكبر من اللازم من الفضة عبر المحيط الهادي، لأن ذلك كان من شأنه أن يقلل الفضة المتاحة للاحتياجات الملحة للتجارة والحرب في أوروبا. على أن منع التجارة تماماً كان يعني هلاك الفلبين لعدم وجود خيار اقتصادي فعال آخر لبقاء هذه الجوهرة الغربية في التاج الإسباني. وتمثل الحل الوسط في السماح بالتجارة، لكن مع تقييدها في مستوى محدد، بما يسمح ببقاء صناعة الحرير المنافِسة للحرير المستوْرد في إسبانيا ومستعمراتها وتقييد انتقال الفضة عبر الهادي ضمن حدود معقولة، وفي الوقت نفسه تقديم الحافز اللازم لإقناع عدد كاف من المستعمرين الإسبان للاستيطان في بيئة خطرة وغير صحية للأوروبيين.

طُبِق نظام التدخل من جانب الدولة في العام ١٥٩٣ بعد فترة أولية من الحرية النسبية بداية من العام ١٥٧١. فكان غير مسموح بأن تتجاوز قيمة الشحنة المحملة في مانيلا كمية عُرِفت باسم المسموح permiso، وهي مئتان وخمسون ألف بيزو(٤٧) بأسعار مانيلا وضعف ذلك المبلغ لقيمة البيع النهائي بأسعار أكابولكو. تشرح شورز ذلك باختصار مُحْكَم بالقول: "كان ذلك نوعاً من الحصة التصديرية للمستعمرة، وأدى خدمة مزدوجة، هي تقييد منافسة الحرير الصيني للصناعة الإسبانية في السوق المكسيكي، وتقييد انتقال الفضة المكسيكية إلى الصين"[٧٨]. وظل مستوى المسموح بلا تغيير حتى العام ١٧٠٢، حين رُفِع إلى ثلاثمئة ألف بيزو في مانيلا وضعفه في أكابولكو. وبذلك رُفِع معدل العائد بالقيم الرسمية بنسبة ١٠٠٪ قبل خصم الضرائب والرسوم وتقدير الأخطار الكبيرة ممثلة في فقدان السفن بسبب العواصف أو القرصنة. وزيادة

(٤٧) البيزو peso قطعة نقد فضية قديمة في إسبانيا وأمريكا الإسبانية ووحدة النقد الحالية في عدد من الدول اللاتينية [المترجم].

قيمة السلع المنقولة فوق المستوى المسموح كان بالطبع يزيد الأرباح الإجمالية بالقدر نفسه، لكنه كان يترك معدل العائد دون تغيير، على فرض أن الأسعار في أكابولكو ظلت ضعفها في مانيلا كما كانت في السابق.

كان تخصيص هذه الريوع (أي مساحة الشحن على الغليون) مصدراً لمحسوبية شديدة تقاتل عليها الحكام وغيرهم من موظفي التاج الآخرين والمسؤولين البلديين وأعضاء الجماعة التجارية الإسبانية. وتسرد شورز بتفاصيل ممتعة كيف كانت الريوع تخصص للقطاعات المختلفة بمجتمع مانيلا، من التجار إلى الموظفين الحكوميين والضباط العسكريين والمتقاعدين والأرامل والأيتام، وأخيراً وليس آخراً ممثلي المنظمات الدينية والخيرية المختلفة. وكما يمكن أن نتخيل بسهولة، كان التحميل الزائد شائعاً إلى حد تعريض أمان السفن للخطر وزيادة خطر فقدان السفن أو تعريضها للأسر بسبب تقليل الفضاء اللازم للتجهيزات الملاحية الاحتياطية والذخيرة لأغراض الدفاع. وفي المقابل كانت رحلة العودة من أكابولكو إلى مانيلا "بلا حمولة تقريباً"، كما تقول شورز، لأن ثمن الحرير كان يدفع بالدرجة الأولى بالفضة، وهي مادة عالية القيمة منخفضة الوزن. فيما كان عدد المسافرين من أكابولكو إلى مانيلا أكبر من المسافرين في الاتجاه العكسي، حيث كان سكان الفلبين ينمون بثبات.

كان الطلب عالياً على الحرير والسلع الآسيوية الأخرى التي تجلبها الغليونات إلى ميناء أكابولكو العميق. رسمياً كان المشترون الوحيدون المسموح لهم بالشراء في أكابولكو هم رعايا نائب الملك من سكان إسبانيا الجديدة، لكن ثبت أنه يستحيل منع الأشخاص من رعايا نائب الملك في بيرو من الدخول، أو حتى إرسال طلبات إلى مانيلا ذاتها من خلال وكلائهم. وكان جزء كبير من الحرير الذي يصل إلى أكابولكو نحو العام ١٦٠٠ يؤخذ من فيرا كروز Vera Cruz إلى إسبانيا نفسها[٧٩]، وهي علامة رائعة على انخفاض تكلفة السلعة وارتفاع نوعيتها لدرجة لا تُفْقِدها تنافسيتها حتى بعد عبور المحيط الهادي ثم المحيط الأطلسي. وكان الزوار الأوروبيون إلى المكسيك وليما جميعهم يذهلهم مدى

انتشار الملابس الحريرية بين الناس، حتى بين المهجنين[٤٨] الهنود، فيما كان الإسبان الأفضل حالاً يُظهِرون مستوى من الترف أبعد كثيراً مما كان يُرى في عواصم أوروبا.

واستطاعت صناعة الحرير المكسيكية أن تنقذ نفسها من الانقراض باستخدام الحرير الطبيعي الصيني كمادة خام لها. ويستشهد أتويل بمصدر يذكر أن الحرير الخام الصيني المستوْرد من مانيلا دعّم بقاء أربعة عشر ألف نساج في العمل في مدينة المكسيك وبوبلا Puebla[٨٠]. لا عجب إذن أن تقول شورز إن معدل الربح من تجارة الغليونات كان بين ١٠٠ و٣٠٠٪، وليس المستوى المسموح به وهو نحو ٨٠٪[٨١]. وجمع الوجهاء مثل الحكام ونواب الملك ثروات ضخمة من امتيازاتهم في الحصول على فضاء الشحن النادر. وتستشهد شورز بمثال الملاح الشهير إبان القرن السادس عشر الذي بدأ بما قيمته مئتي دوكاتية من السلع الإسبانية والفلمنكية، استطاع أن يحوّلها في مانيلا إلى بضائع حريرية قيمتها ألف وأربعمئة دوكاتية، ربح منها ألفين وخمسمائة دوكاتية بعد بيعها في أكابولكو. وأدى طلب الدول الأوروبية الأخرى على الحرير الصيني إلى خفض ربحية تجارة الغليونات إبان القرون اللاحقة، لكنها واصلت الصعود حتى نحو العام ١٨١٥.

الصعود الهولندي إلى صدارة التجارة العالمية

شهد العقد الأخير من القرن السادس عشر ظهور الهولنديين كفاعل رئيس في الاقتصاد العالمي، أزاح البرتغاليين والإسبان خلال بضعة عقود واستولى على مكانتهم القيادية خلال القرن الثامن عشر، قبل أن يفقد مكانته في النهاية لصالح البريطانيين. في نهاية العقد السابع من القرن السادس عشر، ثارت المقاطعات الشمالية السبع، من بين المقاطعات السبع عشرة التي كوّنت الممتلكات الإسبانية في هولندا، ضد ما اعتبروه الحكم المستبد لفيليب الثاني. وشكلوا اتحاد أوترخت كنوع من التحالف الدفاعي في العام ١٥٧٩، وأعلنوا استقلالهم عن إسبانيا الهابسبرغية[٤٩] في العام ١٥٨١. وأعيدت

(٤٨) المُهَجَن أو الهجين mestizo هو الشخص الذي ولد لأبوين أحدهما أوروبي والآخر هندي أمريكي [المترجم].

(٤٩) آل هابسبرغ Habsburg أو آل النمسا واحدة من أعرق العائلات الحاكمة في أوروبا العصور الوسطى والعصر الحديث المبكر، كان منهم الأباطرة الرومان المقدسون من العام ١٥٣٨ إلى العام ١٧٤٠ وحكام

المقاطعات الجنوبية، ومنها فلندرة وبرابانت Brabant المتطورتين جداً، التي تتطابق تقريباً مع بلجيكا الحالية، إلى الحظيرة الإسبانية والكاثوليكية، لكن بعد هجرة واسعة من جانب المنشقين الأغنياء والماهرين إلى الشمال. كانت أنتويرب Antwerp الواقعة في برابانت المتجر الرئيس لذلك الجزء من أوروبا قبل القرن الخامس عشر، لكن خربتها الأعمال العدائية والحصار المطول الذي فرضه الهولنديون على نهر شيلديت Scheldt، فحلت أمستردام بهولندا محلها، لأنها كانت الأكثر سكاناً وثراء بين المقاطعات السبع المتحدة. فارتفع عدد سكان أمستردام من نحو خمسين ألف نسمة في العام ١٦٠٠ إلى ضعف ذلك العدد في العام ١٦٢٠، ثم إلى مائتي ألف في العام ١٦٥٠.

كانت الجمهورية الهولندية أوليغاركية[٥٠] تجارية تشبه البندقية نوعاً ما، وإن كانت أكبر كثيراً من مجرد دولة – مدينية، بعدد سكان بين واحد واثنين مليون نسمة، وهو قريب من عدد سكان البرتغال، وتضم منطقة داخلية متنوعة ومنتجة. وكانت القيادة التنفيذية للدولة الجديدة تأتي بالدرجة الأولى من آل أورانج House of Orange أحفاد وليام الصامت William the Silent (مات في العام ١٥٨٤) الذي يعتبر "أبو الأمة الهولندية". فكانت هذه السلالة تتولى منصب القائم مقام Stadholder في هولندا وزيلند

الإمبراطورية النمساوية والإمبراطورية الإسبانية وبلاد أخرى كثيرة، أخذت الأسرة اسمها من قلعة هابسبرغ التي بناها بين العامين ١٠٢٠ و١٠٣٠ في سويسرا الحالية الكونت رادبوت الكيتاغي Radbot of Kettgua وكان ابنه أوتو الثاني أول من أضاف اسم القلعة "الهابسبرغي" إلى لقبه، وحكمت العائلة مناطق واسعة من أوروبا والعالم الجديد في أوجها، وكانت أقوى ممالكها في إسبانيا والنمسا، وانتهت بموت آخر ذكورها في العام ١٧٠٠، الذي أطلقت وفاته حرب الخلافة الإسبانية [المترجم].

(٥٠) الأوليغاركية Oligarchy (حكم القلة) شكل لبنية السلطة في الدولة تتجمع فيه السلطة في أيدي عدد صغير من الناس، قد يكونون أسرة مالكة أو روابط أسرية أو طبقة غنية أو طبقة الشركات ورجال الأعمال أو رجال الجيش، وغالباً ما تنتقل السلطة فيه بين أجيال أسر قليلة نافذة. تاريخياً كان هذا الشكل لبنية السلطة ينحو إلى الاستبداد وتحويل الشعب إلى عبيد، ومنه أيضاً ما كان حميداً فيحفظ للشعب الكثير من الحقوق، فيما يحتفظ لنفسه بالسلطة. ومن علماء السياسة، مثل روبرت ميشلز، من يرون أن الديمقراطيات الحديثة تطورت إلى أوليغاركيات بسبب ضيق النخبة التي يتم تداول السلطة في إطارها وبسبب وجود حزب واحد أو اثنين تنتقل السلطة بينهما. ومن علماء السياسة أيضاً من يعتبرون الديمقراطية الحديثة أوليغاركية لأصحاب الشركات، واشتقوا لها اسما corporatocacy "حكم الشركات"، في مقابل حكم الأسر أو العسكر قديماً [المترجم].

وأوترخت، وكذلك قيادة القوات المسلحة الهولندية. وكانت المؤسسة الاتحادية الأساسية هي المجلس العام للدولة الذي كان يجتمع في لاهاي. كان مصدر الثروة الرئيس للجمهورية الوليدة يكمن في نظامها الاقتصادي الذي كان- بلا شك- الأكثر إنتاجية وكفاءة في أوروبا في ذلك الوقت، حيث كانت إيطاليا قد تجاوزت أيام عزها إبان القرن السابق. وكانت الزراعة في الجمهورية تتركز على النشاطات ذات القيمة المضافة العالية مثل الماشية ومنتجات الألبان بدلاً من الفلاحة العادية، ما وفر نسبة كبيرة من القوة العاملة للصناعة والخدمات. وكانت الميْزة النسبية الأولية الأقوى التي تمتع بها الاقتصاد الهولندي هي الشحن، وبخاصة في بحر البلطيق، وهذا القطاع يسمى "التجارة الأم"، إذ تنشأ منه كل أنواع التجارة الأخرى. فكانت غالبية الحبوب المصدّرة من منطقة البلطيق تحملها السفن الهولندية إلى أمستردام، ثم تعيد تصديرها من هناك إلى أجزاء أوروبا الأخرى، بما في ذلك البحر الأبيض المتوسط. وكان صيد الرنغة من بحر الشمال سلعة تصديرية أساسية هولندية أخرى، وقد استخدموا فيها السفينة الكبيرة المعروفة باسم حافلة الرنغة herring bus، وهي عبارة عن مصنع عائم كان الصيد يُنظَف ويُملّح ويُعلّب على ظهرها.

قطع الهولنديون أيضاً خطوات واسعة في مجال التصنيع، وذلك جزئياً على حساب المراكز الأقدم والأكثر ترسخاً في فلندرة والأجزاء الأخرى بهولندا الإسبانية. فبعد أن كانت هوندشوت Hondschoote المنتج الرئيس "للأجواخ الجديدة" والأقمشة الصوفية الخفيفة المصنوعة من الصوف الطويل، أدى النزاع مع إسبانيا إلى هجرة آلاف العمال ورجال الأعمال المهرة من هذه المدينة إلى ليدن Leyden بهولندا، التي ضاعفت عدد سكانها من العام ١٥٨٠ إلى العام ١٦٠٠ ورفعت ناتجها من هذه المنسوجات إبان الفترة نفسها إلى أكثر من الضعف. وبحلول العام ١٦٦٤، كانت ليدن تنتج مئة وأربعةٍ وأربعين ألف قطعة في العام، ويذكر فان هوته van Houtte أن "ليدن في ذلك الوقت كانت مركز التصنيع البارز للصوف في أوروبا، وربما في العالم أجمع"[٨٢]. وسرعان ما أصبحت هذه الأقمشة الهولندية تصدّر إلى أسواق البلطيق والبحر الأبيض المتوسط. وأسس اللاجئون الفلمنكيون مدينة هارليم Haarlem أيضاً كمُنتِج مهم للكتان. وكان

تشييد السفن لتعويض التلف في الأسطول الضخم وللتصدير أيضاً مكوناً رئيساً آخَر في القطاع الصناعي، وكانوا ينتجون ما بين مئتين وخمسين وثلاثمئة وخمسين سفينة سنوياً في نحو العام ١٦٥٠. وتمثل أحد التجديدات الملاحية الهولندية البارزة في سفينة الفلوت fluit وهي سفينة مصممة لتعظيم قدرة حمل البضائع وتقليل تكلفة العمالة على حساب السرعة. ويرجع الفضل إلى هذه السفن التي أُدخِلت إبان العقد الأخير من القرن السادس عشر وكانت تُشيَّد في ترسانات مدينة هورن Hoorn، في خفض أسعار الشحن الهولندية في نقل البضائع الضخمة إلى الحد الذي أخرج معظم المنافسين من السوق. وكان من أسباب تقليل العمالة على سفن الفلوت أنها كانت غير مسلحة أو ذات تسليح خفيف. لكن ذلك كان يتطلب أن ترافقها سفن حربية عند الإبحار في مياه خطرة ، وهو أحد الأمثلة الجيدة على اعتماد "الوفرة" على "القوة"[٥١] في تلك الفترة. لكن في مقابل تقسيم العمل الهولندي بين السفن المدنية والعسكرية، ظلت السفن التجارية الإنجليزية وغيرها تحمل تسليحاً ثقيلاً ومُكْلِفاً. وكما يقول جورج داونينغ George Downing الذي سنقابله في الفصل التالي، فإنه "إذا كان تجارهم يجب أن ترافقهم قوافل مسلحة وكان الإنجليز يجب أن يكونوا تجاراً ومحاربين في الوقت عينه، فإن الأخيرين لا يستطيعون الإبحار بسرعة وسهولة الهولنديين، وبالتالي ستتحوّل التجارة أكثر فأكثر لصالح الهولنديين"[٨٣].

سنرى لاحقاً أن روسيا كانت قطاعاً جديداً مهماً لتجارة ما وراء البحار، اخترقه الهولنديون بعد العام ١٥٩٠، ليس من خلال بحر البلطيق، وإنما من خلال شمال النرويج إلى أركانجل[٥٢]. وتضمن هذا الطريق تبادل منتجات فاخرة مثل النبيذ والتوابل والحرير والأقمشة الصوفية الغالية، في مقابل الفراء والجلد والكافيار، التي كانت بدورها يعاد تصديرها إلى جميع أنحاء أوروبا. فقد حل الهولنديون محل الإنجليز في قيادة هذه التجارة عالية القيمة بحلول العام ١٦١٠، كما ذكر جوناثان إزرائيل

(٥١) تذكر أن "القوة" و"الوفرة" والعلاقة بينهما في تاريخ التجارة العالمية هو الموضوع الأساسي للكتاب [المترجم].

(٥٢) أركانجل Archangel مدينة روسية تقع على ضفتي نهر دفينا الشمالي بالقرب من مصبه على البحر الأبيض، تسمى حالياً أركانجيليسك Archanelsk [المترجم].

Jonathan Israel الذي يضفي أهمية كبيرة على هذا الاختراق باعتباره مؤشراً على أن الهولنديين قطعوا خطوة واسعة في طريق التحول من مجرد ناقل أو شاحن رخيص، لأن ذلك كان يتطلب رأس المال والروابط التجارية اللازمة لجمع مدى واسع من السلع الغالية لإعادة بيعها[٨٤]. وأخذ كثير من التجار من أجزاء أوروبا الأخرى، ومنهم مَنْ كانوا يسمون "المسيحيين الجدد"(٥٣) من أيبيريا، يتوافدون للعمل في الدولة الجديدة، حيث جذبتهم الفرص التجارية والتسامح الديني.

كان من الأساسيات لتجارة الشحن عالية القيمة التي ابتدعها الهولنديون وصولهم إلى سوق التوابل بلشبونة التي أصبحت خاضعة للسيطرة الإسبانية بعد اتحاد التاجين الأيبيريين في العام ١٥٨٠. وكان هذا الوصول يمكن أن يُقطَع في أي وقت بفرض الحظر، كما حدث في العامين ١٥٨٥ و١٥٩٥. وكان الحل طويل المدى الفعال الوحيد هو الوصول إلى المنبع، أي إلى جزر الهند الشرقية ذاتها، وأن يفعلوا بالبرتغاليين ما فعله الأخيرون بالبنادقة والمصريين قبل قرن. ولذلك أسس مجموعة من تجار أمستردام في العام ١٥٩٤ "شركة الأراضي البعيدة" Company of Far Lands وأرسلوا أسطولاً من أربع سفن إلى البحار الشرقية، عاد في العام ١٥٩٧ بفقد سفينة والكثير من الأرواح، لكنه أتى بكمية من الفلفل تكفي لاعتبار الرحلة ناجحة[٨٥]. وبفضل هذا التشجيع، غادر أسطولان مكونان من اثنتين وعشرين سفينة في العام ١٥٩٨، قاد أحدهما جاكوب فان نيك Jacob van Neck، وعادا بثماني سفن وتوابل كافية لتحقيق ربح قدره ٤٠٠٪، ما جعل أجراس أمستردام تدق فرحاً وابتهاجا. وبسبب التعطش للأرباح، غادرت خمس وستون سفينة في العام ١٦٠١. وسرعان ما

(٥٣) المسيحيون الجدد New Christians هم المسلمون واليهود الأيبيريون الذين تحولوا إلى الكاثوليكية الرومانية وأحفادهم، وقد حدث تنصير اليهود بالقوة إبان العقد التالي للعام ١٤٩٢، حيث خيّرهم الملكان الكاثوليكيان فيردناند الأراغوني وإيزابيلا القشتالية بين التنصر والنفي من إسبانيا، وحتى من آثر النفي منهم، أجبر على التخلي عن ممتلكاته وأطفاله. وعلى مدى القرن السادس عشر، أصدر الملكان وخلفاؤهما عدة مراسيم وترتيبات لإجبار المسلمين الأندلسيين الذين عُرِفوا باسم الموريسكيين على التنصر، وحين رفضوا وثاروا قمعتهم الجيوش الإسبانية بقسوة، وحتى بعد أن تنصروا- ولو ظاهرياً على الأقل- أخضعتهم محكمة التفتيش لمعاملة قاسية، إلى أن طردتهم إسبانيا أخيراً من أراضيها مع منعطف العقد الأول من القرن السابع عشر [المترجم].

اتضح أن الفقاعة(٥٤) تسببت في رفع أسعار الفلفل بشدة في المنبع لأكثر من ١٠٠٪ في ست سنوات، كما يذكر إزرائيل[٨٦] وخفضها في أوروبا.

تطلب الموقف تنظيم احتكار فعال، لكن كيف كان السبيل إلى ذلك؟ حُلت المشكلة على المستوى الاتحادي من جانب مجلس قيادة الدولة، ولعب الدور الرئيس في المفاوضات رجل الدولة البارز يوهان فان أولدينبارنفيلدت Johan van Oldenbarneveldt من جنوب هولندا. وتشكلت شركة امتياز(٥٥) في العام ١٦٦٢ باسم Vereenigde Oost-lndische Compagnie [شركة الهند الشرقية الهولندية VOC] يتكون مجلس إدارتها من سبعة عشر عضواً. كانت أمستردام المصدر الرئيس لرأس المال وشاركت بثمانية أعضاء، وزيلند بأربعة أعضاء، والمنطقة الشمالية (هورن Hoorn وإنخوزين Enkhuizen) بعضوين، وجنوب هولندا (ديلفت Delft وروتردام) بعضوين. وكان المقعد السابع عشر يدوَّر بين زيلند والمنطقة الشمالية وجنوب هولندا، بما يمنع أمستردام من امتلاك أغلبية مضمونة، مع الاعتراف بمكانتها البارزة التي تأكدت أيضاً بوضع مقر الشركة فيها.

مُنِحت شركة الهند الشرقية الهولندية حق احتكار تجارة شرق رأس الرجاء الصالح وغرب مضيق ماجلان لفترة أولية مدتها واحد وعشرون عاماً. وكان من سلطة مجلس السبعة عشر أن يشن حرباً دفاعية وأن يشيّد القلاع والمعاقل وأن يدخل في معاهدات وتحالفات في المنطقة الشاسعة التي يغطيها احتكاره. وبذلك يمكن القول- دون مبالغة - إن شركة الهند الشرقية الهولندية كانت "فعلياً دولة داخل الدولة"[٨٧]. فكانت الشركة مزيجاً فريداً وغير مسبوق من السلطة التجارية والسياسية. صحيح أن

(٥٤) يشير مفهوم الفقاعة bubble في الاقتصاد – كما في تعبيرات الفقاعة الاقتصادية أو فقاعة المضاربة أو فقاعة السوق أو فقاعة السعر أو الفقاعة المالية – إلى تلك الحالة التي تتسبب فيها المضاربة على سلعة ما إلى زيادة سعرها، ما يؤدي إلى زيادة المضاربة عليها، وعندها يبلغ سعر السلعة مستويات خيالية، ومن هنا يأتي تشبيه انتفاخ الفقاعة أو البالون، إلى أن تبلغ مرحلة انفجار الفقاعة أو البالون بحدوث هبوط حاد في السعر [المترجم].

(٥٥) شركة الامتياز chartered company شركة يكوّنها مستثمرون أو أصحاب أسهم لأغراض التجارة والاستكشاف والاستعمار [المترجم].

البندقية وجنوى والرابطة الهانزية كانت تستخدم قوة بحرية كبيرة، لكنها كانت مجرد دول مدينية لا تمتلك الموارد الكاملة لدولة قومية حقيقية مثل الجمهورية الهولندية، على الرغم من صغر حجم سكان الأخيرة. وما إن وضعت القاعدة المؤسسية الاستثنائية للشركة في العام ١٦٠٢، حتى انتشرت سريعاً بنجاح رائع في جزر الهند الشرقية. ومع منتصف القرن ونهاية "حرب الثمانين عاماً" أو "حرب التحرر" من الهابسبرغيين في العام ١٦٤٨، كان الهولنديون القوة الأوروبية المهيمنة على التجارة بين آسيا وأوروبا وعلى تجارة الشحن داخل آسيا، وتفوقوا كثيراً على منافسيهم الأيبيريين الذين هم أقدم وجوداً في المنطقة. يرجع قدر كبير من هذا النجاح إلى رئيس مجلس إدارة الشركة في جزر الهند جان بيترزون كوين Jan Pieterszoon Coen (١٥٨٧–١٦٢٩) الذي جاء في بيانه إلى مجلس الإدارة فور توليه مهامه مباشرة: "إننا لا يمكن أن ندخل حرباً بلا تجارة، ولا أن نمارس التجارة بلا حرب"، وهو تعبير دقيق تماماً عن العلاقة بين الحرب والتجارة في الحقبة المركنتيلية، وقد أثبت كوين أنه عديم الرحمة وكفء في الجانبين بالقدر نفسه.

كانت التجارة في المحيط الهندي والمحيط الهادي، كما رأينا في الأقسام السابقة، قد استقرت على نمط ثابت في أوائل القرن السابع عشر. فكان البرتغاليون يسيطرون على غوا وهرمز ومالاكا ومكاو والإسبان على مانيلا كقواعد وموانئ محصنة، لكن مع نقل مزيد من التوابل براً إلى أوروبا بعيداً عن رأس الرجاء الصالح في ذلك الوقت، وهو ما أبطل عملياً أي احتكار لهذه السلع من جانب دولة الهند البرتغالية. رأت العقلية الجيواستراتيجية الثاقبة لكوين الشاب في هذا الموقف حالة مواتية للسيطرة على التجارة العالمية. لقد قاتلت بلده القوتين العظميين الأيبيريتين إلى أن تجمدت الأوضاع على ترابها، وكانت تحشد أسطولاً كافياً لاقتحام حلقة المحطات التجارية المحصنة من هرمز إلى مانيلا بالاستيلاء عليها بطريقة مباشرة أو بإطلاق منافسين يخصمون من تجارة الأيبيريين. وبدلاً من انتظار أن تظهر لهم السلع من تلقاء أنفسها، كان يمكن لسياسة جَسُور أن تنتزع التوابل في المنبع من المزارعين المحليين بأسعار منخفضة، إذا أمكن إبعاد المشترين المحليين والأجانب المنافسين بالقوة، ثم تُصدّر إلى أوروبا بكميات صغيرة

نسبياً، لكن بهامش ربح عالٍ. ويمكن لمجموعة مختارة بعناية من المستوطنين الهولنديين أن يكونوا رأس حربة للعمل التجاري في أماكن مختلفة بآسيا، ويشتركوا في الحجم الضخم لتجارة الشحن داخل آسيا، ويمكن للأرباح الناتجة عنها أن توفر رأس المال العملي السنوي المطلوب للتجارة، دون الضرورة المُكْلِفة للحصول على السبائك أو النقود الفضية في أوروبا من الإسبان أو من دائنيهم الإيطاليين. ونظراً لأن كوين قدم تفاصيل هذه الرؤية كاملة في مذكراته إلى مجلس السبعة عشر، فلا غرابة أن يجعلوه حاكماً عاماً وهو في عمر الثلاثين.

كانت غالبية تجارة التوابل تقوم على الفلفل، ذلك النبات الذي ينمو بسهولة نسبياً في مساحات واسعة بالمنطقة الاستوائية من مالابار إلى سومطرة وجاوة. ولذلك كان من المستحيل احتكار إمداداته، وكذلك كان الاتحاد الاحتكاري يصعب تنظيمه والحفاظ عليه. ومع وجود القرنفل، وبدرجة أكبر جوز الطيب والميس[٥٦] في هذه المناطق، كانت إمكانات الربح أكبر بكثير. كانت شجرة جوز الطيب تحتاج لتوليفة محددة من التربة ودرجة الحرارة والمطر، ما جعلها تنمو فقط في جزر الباندا الخمس الصغيرة. ومنذ أوائل القرن السادس عشر على الأقل، كان الطلب كافياً لجعل الجزر تتخصص في إمداد هذه التوابل، وتستورد الساغو[٥٧] والأرز والأقمشة في المقابل. وكذلك كانت زراعة القرنفل تقتصر على المنطقة التي ينمو فيها في ذلك الوقت، بالدرجة الأولى في جزيرتي تيرنيت وتيدور الصغيرتين غرب جزيرة هالماهيرا Halmahera الكبيرة، فضلاً عن أمبون وسيرام Ceram التي تُعرَف جميعها باسم جزر الملوك. يذكر فيليرز أن الزيادات المتعاقبة لأسعار القرنفل كانت استثنائياً، فكان السعر في مالاكا ثلاثين ضعف السعر في المنبع في جزر الملوك، وفي الهند مئة ضعف، وفي لشبونة في أوقات الندرة كانت تصل الأسعار إلى مئتين وأربعين ضعفاً[٨٨]. وكانت المعدلات أعلى في حالة جوز الطيب. فيذكر ميلتون Milton أن كمية جوز الطيب التي كانت

(٥٦) الميس mace تابل من قشر جوز الطيب [المترجم].

(٥٧) الساغو sago دقيق نشوي يعد من لب نخيل الساغو [المترجم].

تشترى في جزر الباندا بأقل من بنس إنجليزي، كانت تباع بسبعين شلناً، أي ثمانمئة وأربعين بنسا![٨٩]

زار الهولنديون كل هذه الجزر في الرحلات المبكرة لشركة الهند الشرقية الهولندية وأبرموا عقوداً مع الرؤساء المحليين تلزمهم بألا يبيعوا لأي مشترين غير شركة الهند الشرقية الهولندية. ولذلك، فحين ظهر ممثلو شركة الهند الشرقية East India Company (EIC) البريطانية في جزر الملوك بعد ذلك بوقت قصير وبدأت تشتري التوابل بأسعار أفضل من الهولنديين، اعتبرهم الهولنديون متطفلين واعتبروا الرؤساء المحليين منتهكين لقدسية العقود، وبذلك برروا لأنفسهم استخدام القوة ضد الطرفين حين رفضا الرجوع. وفي العام ١٦١٦، احتل الهولنديون كل جزر الباندا بالقوة، ولم يبق غير جزيرة بولاو رون Pulau Run الصغيرة التي كانت توجد بها مجموعة صغيرة من رجال شركة الهند الشرقية بقيادة الوكيل التجاري نيقولاس كورثوب Nicholas Courthope الذي قُتِل في العام ١٦٢٠ بعد دفاع باسل، كما في الرواية الملونة التي قدمها غايلز ميلتون Giles Milton في كتابه "ناتنيال وجوز الطيب". ونفذ كوين حملة "تطهير عرقي" عديمة الرحمة وقذرة ضد سكان جزر الباندا، فقتل كل السكان تقريباً أو أبعدهم، واستعاض عنهم بعبيد مستوْردين ومستوطنين هولنديين لإنتاج جوز الطيب[٩٠].

كانت أمبون مشهداً لحادثة إنجليزية- هولندية أخرى مؤسفة جداً، وهي المذبحة، أو بالتعبير القانوني الصحيح قتل الهولنديين للجماعة البريطانية التابعة لشركة الهند الشرقية البريطانية وموظفيها اليابانيين بدعوى مؤامرة مزعومة للاستيلاء على قلعة الجزيرة، كما اعترفوا لهم تحت التعذيب. قصر الهولنديون إنتاج القرنفل على أمبون وحدها، وقطّعوا الأشجار من الجزر الأخرى للحفاظ على عرضه بالمستوى الذي رأوا أنه مثالي للاحتكار. وأبدى مجلس السبعة عشر أسفه وافتعل "الصدمة" من وحشية كوين في جزر الباندا، مع أن كل ما فعله كوين هو تنفيذ سياسة الاحتكار التي أقرها المجلس. وحتى بعيداً عن انعدام الأخلاق الواضح في أفعال كوين، فقد شكك معاصروه والمؤرخون في رشادة سياسته وتكلفتها على المدى البعيد. فقد دفع الدارس

المدقق والمنصف ميلينك رولوفز Meilink-Roelofsz بأن العرض كان ناقصاً جداً في بعض السنوات اللاحقة، وشككّ فيما إذا كانت نفقة الحرب والقهر توازن الأرباح الناتجة عن الحجم المحدود جداً للتجارة في القرنفل وجوز الطيب والميس[٩١].

استغل سلطان بانتام الأعمال العدائية بين الإنجليز والهولنديين للسيطرة على دولة جاكارتا الساحلية على الساحل الشمالي لجاوة التي كانت شركة الهند الشرقية الهولندية تحتفظ فيها بمستوطنة ومحطة تجارية. ولدى عودته بأسطوله في العام ١٦١٩ من أمبون التي هرب إليها من قوة بحرية بريطانية أقوى، فاجأ كوين المدينة وكان على رأس قواته التي أحرقتها تماماً. وأنشأ العاصمة الجديدة لشركة الهند الشرقية الهولندية في مكانها وأطلق عليها اسم باتافيا Batavia على اسم الأجداد التيوتونيين للهولنديين. أُنشِئت المدينة بشوارع وقنوات على النمط الهولندي، وسرعان ما جذبت كثيراً من السكان الأصليين والصينيين، على غرار ما حدث في مانيلا. وستظل هذه المدينة عاصمة الإمبراطورية الهولندية في جزر الهند الشرقية إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية. وفي العام ١٦٢٣، أنهى كوين فترته الأولى كحاكم عام، وعاد إلى هولندا، لكنه عاد ليحكم فترة ثانية في العام ١٦٢٧. جاء تأسيس باتافيا تحدياً لأغونغ Agung سلطان دولة ماتارام Mataram القوية في وسط جاوة، ولذلك حاصر السلطان المدينة الجديدة بقوة كبيرة وكاد أن يستولي عليها. ومات كوين فجأة في باتافيا في أثناء الحصار في العام ١٦٢٩، ربما بسبب الزحار، في عمر الثانية والأربعين. ورُفِع الحصار في النهاية، وانتهى النزاع بين باتافيا وماتارام في وقت لاحق من القرن، حين أصبحت ماتارام وبانتام تابعتين لنظام شركة الهند الشرقية الهولندية.

استمرت سياسات كوين التوسعية تحت قيادة تلميذه أنطوني فان ديمين Antonie van Diemen الذي استولى على مالاكا أخيراً من البرتغاليين في العام ١٦٤١ بمساعدة سلطان جوهور Johore وتلقت الشركة دفعة كبرى حين حل السلام أخيراً مع إسبانيا في العام ١٦٤٨. واقترن بنهاية هذا الصراع تحقق المزيد من الوفرة في "مُدخلين" أساسيين لتجارة شركة الهند الشرقية الهولندية: الجنود والفضة. فاستأجرت هولندا ما لا يقل عن عشرة آلاف وخمسمئة محارب محنك ممن حاربوا ضد إسبانيا وأرسلتهم لخدمة

الشركة إبان الفترة ١٦٤٨-١٦٥٢، فيما ارتفع تدفق الفضة إلى باتافيا من نحو ثمانية ملايين غلدر في العقود السابقة إلى نحو اثني عشر مليون غلدر إبان الفترة ١٦٥٠-١٦٦٠[٩٢].

وشرع الهولنديون في انتزاع سيلان من السيطرة البرتغالية في العام ١٦٣٨، بتشكيل تحالف مع راجاسينها الثاني Rajasinha II حاكم مملكة كاندي Kandy الداخلية. واستطاعت شركة الهند الشرقية الهولندية بمواردها الكبيرة أن تستولي على كولومبو Colombo من البرتغاليين في العام ١٦٥٦ بقوة مكونة من ألفي جندي هولندي وقوات مساعدة سيلانية، وسرعان ما سيطروا على الجزيرة كاملة. واستولوا على جافنة Jaffna في العام ١٦٥٧ وضموها إلى ممتلكات حليفهم السابق ملك كاندي، ما أعطى الشركة القدرة على احتكار تجارة القرفة الثمينة بنجاح والسيطرة على التصدير المربح للفيلة إلى الإمبراطورية المغولية والممالك الهندية الأخرى. واستولت قوات شركة الهند الشرقية الهولندية على سلسلة من الحصون والمحطات التجارية البرتغالية على ساحل مالابار في أوائل العقد السابع من القرن السابع عشر، منها كوشين في العام ١٦٦٣. ولم يبق للبرتغاليين غير غوا ومكاو اللتين أنقذوهما من هجوم هولندي في العام ١٦٢٢ وبقيتا معاقل للبرتغال في آسيا، إلى جانب تيمور Timor وسولور Solor في جزر سوندا الصغرى. وفي جزر الهند الشرقية، أبعدت شركة الهند الشرقية الهولندية الإنجليز تماماً من جزر الباندا، والإسبان من تيرنيت وتيدور، وعززوا موقعهم في جاوة وسومطرة. واستولوا على سلطنة ماكاسار القوية على جزيرة سولاويزي (سيليبيز) في أواخر العقد السابع من القرن السابع عشر، من خلال التحالف مع خصومها البوغيزيين(٥٨)، وبذلك منعوها من التجارة مع المنافسين الإنجليز أو غيرهم، ما ساعد في رفع أرباحهم من تجارة القرنفل والتوابل الأخرى وقضى على الإنتاج الفائض في بعض المناسبات بالإبعاد القسري لسكان المناطق التي كانت تزرع هذه التوابل.

(٥٨) البوغيزيون Bugis أكبر الجماعات العرقية واللغوية عدداً في سولاويزي الجنوبية بإندونيسيا، ترجع أصولهم إلى الأوسترونيزيين الذين استوطنوا الجزر قبل ألفين وخمسمئة عام من الميلاد [المترجم].

وتعد حملات شركة الهند الشرقية الهولندية على كاندي وماكاسار أمثلة جيدة للإمبريالية الأوروبية المبكرة في آسيا التي كانت مؤشراً للتباعد عن النمط البرتغالي الأصلي ومقدمة للنشاطات الإنجليزية والفرنسية بعد أكثر من قرن. فبينما ظل البرتغاليون قانعين بتأسيس قلاع ومحطات تجارية في مواقع إستراتيجية والاعتماد على القوة البحرية وحدها في محاولة السيطرة على التجارة، كانت شركة الهند الشرقية الهولندية مستعدة لقطع خطوة أبعد في تأسيس القوة الاحتكارية من خلال السيطرة الفعلية على المناطق التي كانت تُنتَج فيها سلع مثل جوز الطيب والقرنفل والقرفة. وكما يقول سيناباه أراساراتنام Sinnappah Arasaratnam، فإن "التوسع الإقليمي للهولنديين في آسيا كان نتيجة مباشرة لسياستهم التجارية"[٩٣]. لكن هذه المكاسب الكبيرة لم تعوض النكسات التي تعرضوا لها في الشرق الأقصى، حيث أدت سياسة العزلة من جانب شوغونية توكوغاوا إلى توقف إمدادات الفضة اليابانية، كما طُرِد الهولنديون من تايوان في العام ١٦٦١. والدرس الذي تعلمته النزعة القومية الآسيوية المستقبلية من هذه الأحداث كان واضحاً: حين تكون هناك دولة آسيوية موحدة قوية مثل دولة توكوغاوا اليابانية أو إمبراطورية تشينغ الصينية، يمكن حصر الأوروبيين في الهوامش، بما ينتج تجارة مفيدة للطرفين، لكن حين تكون الأراضي الآسيوية مقسمة بين خصوم داخليين، كما كانت الحال في الأرخبيل الإندونيسي أو سيلان، يقع الآسيويون فريسة سهلة للقوة الأوروبية الضارية.

كانت الأقمشة من ساحل كوروماندل الشرقي بالهند السلعة التي تمتعت بأعلى مستوى من الطلب في الأرخبيل، في مقابل التوابل. ولذلك أنشأت شركة الهند الشرقية الهولندية "مصنعين" أو محطتين تجاريتين في المنطقة، واحدة في ماسولیباتام[٥٩] والأخرى في بوليكات Pulicat، إبان العقد الأول من القرن السابع عشر. وكما أوضح رايشوظوري Raychaudhuri، فإن سلطان الدكن كان متلهفاً لاستقبال الشركة في ممالكه، كما يتأكد من إعفائه للشركة من رسم الطابع على الأقمشة (بقيمة ١٢٪)

(٥٩) ماسولیباتام Masulipatam مدينة ومنطقة على الساحل الشرقي للهند تسمى حالياً ماتشيليباتنام Machlilipatnam [المترجم].

الذي كان مفروضاً على المشترين الآخرين جميعاً، وكذلك التجار المحليين، وهي طريقة تشبه الممارسة الحالية من جانب كثير من الدول النامية لجذب الاستثمار الأجنبي[٩٤]. لكن ذلك لم يمنع موظفيه الجشعين وسلطاته المحلية الأخرى من مضايقة الشركة بشتى الطرق لابتزاز رشاوى منها. وكانت الحرب الدائمة تقريباً والمجاعات الدورية التي كانت تضرب المنطقة عوائق أخرى كبلت التجارة. لكن على الرغم من هذه الصعوبات، كان عرض الأقمشة نفسه مرناً جداً، فلم تكن المشتريات يقيّدها غير رأس المال الذي كانت الشركة تستطيع أن تحشده في كل عام في شكل المعادن النفيسة التي كانت وسيلة الدفع الوحيدة المقبولة(٦٠). وواصلت صادرات الأقمشة الارتفاع بثبات على مدار القرن، ولم تقتصر على مبادلة التوابل في الجزر، بل تعدتها إلى أوروبا وحتى اليابان وبلاد فارس، ما جعل منسوجات كوروماندل القطنية سلعة عالمية تتداولها شركة الهند الشرقية الهولندية. وارتفعت حصة أقمشة كوروماندل ومنسوجاتها الأخرى كحصة من إجمالي المبيعات في أمستردام من ١٧٪ في الأعوام ١٦٤٨–١٦٥٠ إلى ٤٣٪ في الأعوام ١٦٩٨–١٧٠٠، ما يعني أنها تجاوزوت التوابل والفلفل التي انخفض نصيبها من ٥٨٪ إلى ٣٧٪ إبان الفترة نفسها[٩٥]. وبذلك أصبح "الذراع الأيسر" لشركة الهند الشرقية الهولندية، كما أُطلِق على تجارة كوروماندل، أقوى من "الذراع الأيمن" المتمثل في تجارة التوابل من الأرخبيل.

لم تكن الأقمشة بحال من الأحوال المادة الوحيدة التي كان الهولنديون يصدّرونها من كوروماندل. فكانت النيلة سلعة أخرى عليها طلب قوي في كل من أوروبا وآسيا، وحاولت الشركة تشجيع زراعتها في المنطقة. ربما كانت السلعة التصديرية المذهلة فعلاً هي البارود الذي كان يُصنَع من الملح الصخري المحلي، الذي ذكر رايشوظوري أنه كان يلبي متطلبات الشركة الكبيرة، فضلاً عن تصديره إلى أوروبا لتلبية الطلب الناتج عن حرب الثلاثين عاماً. وتطورت أيضاً التجارة في العبيد بفعل المجاعات المتكررة، لكنها لم تصل إلى مستويات كبيرة، على الرغم من جهود كوين

(٦٠) كلما زادت مرونة العرض والطلب، ازداد تجاوب المنتَجين والمستهلكين لتغييرات الأسعار. انظر مثالاً لتأثير المرونة على النتائج الاقتصادية في الشكل رقم (٦.٥) والمناقشة المصاحبة له.

لتشجيعها. وقد رفض أحد أمراء الحرب الهندوس المحليون عروضاً بأن يوفر العبيد قائلاً إنه يرى ذلك إثماً كبيراً في نظر الآلهة. وفي هذه الحالة- على الأقل- كانت الآلهة الهندوسية أكثر رحمة من الإله الكالفيني لكوين. وعملت محطات كورومانديل أيضاً كقاعدة ملائمة لتشجيع التجارة مع البنغال وبورما وسيام وشبه جزيرة الملايو.

وعلى ذلك، يمكن القول إن السنوات الخمسين الأولى لشركة الهند الشرقية الهولندية كانت ناجحة بشكل منقطع النظير. فارتفع عدد السفن التي ترجع من آسيا إلى موانئ الشركة بثبات من عقد إلى آخر، من خمسين سفينة إبان العقد الثاني من القرن، إلى مئة وثلاث سفن إبان العقد السادس، ثم إلى مئة وست وخمسين سفينة إبان العقد الأخير من القرن، فيما ارتفعت أسعار الأسهم في بورصة أمستردام أربعة أضعاف تقريباً بين العامين ١٦٢٥ و١٦٤٨[٩٦]. ويذكر دي فريز وفان دير ووده de Vries and van der Woude أن إجمالي الأرباح التي دفعتها شركة الهند الشرقية الهولندية لحملة الأسهم حتى العام ١٦٥٠ كان ثمانية أضعاف الاستثمار الأصلي، وكان معدل العائد السنوي لحامل الأسهم الذي احتفظ بالأسهم حتى العام ١٦٥٠ هو ٢٧٪[٩٧].

على أن التجارة الهولندية العابرة للقارات في هذا العصر لم تقتصر بحال من الأحوال على شركة الهند الشرقية الهولندية وآسيا. فبداية من العقد الأخير بالقرن السادس عشر فصاعداً، كان الهولنديون نشطين في المحيط الأطلسي أيضاً، سواء على الساحل الغربي لأفريقيا أو الساحل الشرقي للأمريكتين. فعلى ساحل غينيا، كانت السفن الهولندية في البداية تتاجر في الذهب والعاج، قبل أن تشارك بقوة لاحقاً في تجارة العبيد. وكانت الحرب مع إسبانيا قد قطعت عليهم الوصول إلى الملح اللازم لتجارة الرنغة في المياه البرتغالية والإسبانية، فأرسلوا أساطيل ضخمة لاستغلال رواسب واسعة على الساحل الفنزويلي وفي الكاريبي، قبل أن توقفهم إجراءات إسبانية مضادة عنيفة، كانت في معظم الأحيان تعدم البحارة الهولنديين باعتبارهم متطفلين إجراميين. وفي أمريكا الشمالية كان الهولنديون يقايضون الفؤوس والسكاكين مع السكان الأهليين في مقابل فراء القندس والقضاعة، وفي الكاريبي كانوا يفعلون الشيء نفسه في مقابل الجلود. وكما في حالة جزر الهند الشرقية، أدت المنافسة بين

التجار الهولنديين إلى خفض هوامش الربح كثيراً في كل هذه التجارة، وبالفعل جربوا العلاج المألوف المتمثل في تشكيل شركة محاصة متحدة، هي شركة الهند الغربية West-Indische Compagnie (WIG) التي تأسست بعد تسعة عشر عاماً من شركة الهند الشرقية الهولندية في العام ١٦٢١ وبرأس مال أولي أكبر منها ومجلس إدارة مكون من تسعة عشر عضواً، عُرِف كسابقه باسم مجلس التسعة عشر.

كانت حرب الثلاثين عاماً تدور رحاها في أوروبا في ذلك الوقت، وكان على شركة الهند الغربية في المحيط الأطلسي أن تواجه القوة الكاملة لإسبانيا الهابسبرغية والبرتغال. وقد حققت فعلاً بعض النجاحات الأولية البارزة. ففي غرب أفريقيا، انخفض سعر الذهب على ساحل غينيا بقيمة الأدوات النحاسية إلى النصف من خلال القضاء على المنافسة[٩٨]. وفي الكاريبي، استولى أمير البحر بيت هاين Piet Heyn على أسطول المعادن النفيسة الإسباني خارج ساحل كوبا في العام ١٦٢٨، الذي بلغت قيمته أحد عشر مليون غلدر[٩٩]. وعلى الجانب الآخر، كانت سفن القرصنة الفلمنكية المنطلقة من دنكيرك تسبب دماراً كبيراً للسفن الهولندية أو تحطم المئات من حافلات الرنغة أو تستولي عليها، وكانت أحياناً تتمكن من اصطياد كنوز ثمينة مثل السفن التجارية الثمانية المليئة بالبضائع التي كانت قادمة من أركانجل في العام ١٦٤٢[١٠٠]. ويذكر باركر Parker أن القراصنة استولوا على أكثر من ألف وثمانمئة سفينة، هولندية بالدرجة الأولى، أو دمروها، من العام ١٦٢٦ إلى العام ١٦٣٤[١٠١]. ويذكر إزرائيل أن السفن الهولندية المتوجهة من البلطيق إلى البحر الأبيض المتوسط كانت تسقط في أيدي القراصنة بنسبة أعلى من ٩٠٪ في الأعوام السبعة الأولى من العقد الثالث من القرن السادس عشر.

وفي العام ١٦٢٤، استولى الهولنديون على باهيا Bahia، وهي القاعدة البرتغالية الرئيسة في البرازيل، لكن البرتغاليون استردوها بعد عام بأسطول أيبيري مشترك ضخم. واستولى الهولنديون في العام ١٦٣٠ على موطئ قدم آخر لهم في ريسيفي Recife في بيرنامبوكو Pernambuco، وشرعوا في تطوير مزارع سكر باستخدام

عبيد من غرب أفريقيا(٦١). ويذكر إزرائيل أن الهولنديين باعوا أكثر من ثلاثة وعشرين ألف عبد في ممتلكاتهم البرازيلية من العام ١٦٣٦ إلى العام ١٦٤٥، ما رفع تصدير السكر من ثلاثة آلاف وستمائة صندوق في العام ١٦٣٨ إلى تسعة آلاف وخمسمئة في العام ١٦٤٣[١٠٢]. لكن بعد ذلك بوقت قصير، انهار موقف الهولنديين في البرازيل تماماً حين ثار عليهم السكان في ممتلكاتهم، الأفارقة والهنود والمهجنون بالدرجة الأولى، بمساعدة إخوانهم في المنطقة البرازيلية الجنوبية التي كانت لا تزال تحت سيطرة البرتغال، ونجحوا في طرد الهولنديين بحلول العام ١٦٥٤. وفي العام ١٦٤٧، قُدّرت أرباح شركة الهند الغربية بأربعمئة ألف فلورين في البرازيل، لكنها أنفقت مليون ومائة ألف فلورين على الدفاع[١٠٣]. وبعد هذه الكارثة، تخلت شركة الهند الغربية عن محاولة تشجيع تجارتها في العالم الجديد بالقوة العسكرية، وأخذت تعتمد منذ ذلك الحين على وسائل سلمية، وإن كانت غير أخلاقية، ووجدت تعويضاً في تصدير العبيد عبر المحيط الأطلسي من غرب أفريقيا.

يذهب بوكسر إلى أن نزاع القرن السابع عشر بين الجمهورية الهولندية والقوتين الأيبيريتين الهابسبرغيتين كان أحق باسم الحرب العالمية الأولى من حرب الأعوام ١٩١٤-١٩١٨، لأنه "جرى على أربع قارات وفي سبعة أبحر"[١٠٤]. وكانت تكاليف الحرب، أياً كان اسمها عالمية أم لا، مذهلة حقاً، كما كشف جيفري باركر[١٠٥]. وقد أدت الحرب وعمليات الحصار إلى تدمير جنوب هولندا، وبخاصة مقاطعتي فلندرة وبرابانت اللتين كانتا في صدارة النمو الاقتصادي الأوروبي منذ العصور الوسطى. ومع أن هولندا تمكنت من التعافي، إلا أنها لم تستعد مكانتها القيادية في أوروبا حتى الثورة الصناعية إبان القرن التاسع عشر. وأنهكت إسبانيا نفسها في هذا النزاع، وأنفقت كنوز جزر الهند الغربية وأضعافها على القوات العسكرية الضخمة التي كانت مضطرة للاحتفاظ بها في هولندا. فيذكر باركر أن الثروات الملكية القادمة من جزر الهند الغربية إبان الفترة ١٥٧١-١٥٧٥ بلغت نحو أربعة ملايين دوكاتية، فيما بلغ الإنفاق على

(٦١) باهيا Bahia وريسيفي Recife وبيرنامبوكو Pernambuco مدن ومناطق برازيلية على ساحل الأطلسي [المترجم].

الجيش الإسباني في فلندرة إبان الفترة نفسها تسعة ملايين دوكاتية، وعلى أسطول البحر الأبيض المتوسط خمسة ملايين دوكاتية، وكان العجز البالغ عشرة ملايين يُوفر من خلال فرض ضرائب قاسية في قشتالة نفسها واللجوء إلى الاقتراض الهائل من المصرفيين الجنويين وغيرهم من الإيطاليين بالدرجة الأولى. وارتفع الدين الوطني من ستة وثلاثين مليون دوكاتية حين اعتلى فيليب الثاني العرش في العام ١٥٥٦ إلى خمس وثمانين مليوناً عند موته في العام ١٥٩٨، ثم إلى مئة وثمانين مليوناً في العام ١٦٦٧[١٠٦]. وكان عبء الحرب على البرتغاليين الذين تفاقمت عداوتهم للهولنديين باتحاد التاجين الأيبيريين في العام ١٥٨٠، مدمراً بكل معنى الكلمة، إذ كلفتهم الحرب- كما رأينا- أفضل المناطق في إمبراطوريتهم الآسيوية. وحين انفصلت البرتغال عن إسبانيا في العام ١٦٤٠، كان الأوان قد فات، لأن الهولنديين كانوا قد أجهزوا على إمبراطوريتهم تماماً.

يتضح النجاح الهولندي جلياً في الأرقام المتوفرة حول الشحن. يعتمد الشكل رقم (٤.٥) على مسح جان دي فريز القيّم لتوضيح عدد السفن المغادرة إلى آسيا في عقد من البرتغال وهولندا وإنجلترا وفرنسا ودول أوروبية أخرى. ونظراً لأن هذه السفن لم تعد جميعها إلى أوروبا، حيث استخدم بعضها لأغراض تجارية أو عسكرية في المياه الآسيوية، بينما فُقِد غيرها، ونظراً لأن السفن كانت تتفاوت في الحجم عبر الدول والزمن، يوضح الشكل أيضاً الحمولة الطنية(٦٢) التي عادت من آسيا إلى أوروبا على مدار الفترة نفسها. وكما يتضح من الشكل، فإن البرتغاليين تمتعوا باحتكار كامل لطريق رأس الرجاء الصالح طوال معظم القرن السادس عشر. وفي حين استمر عدد السفن التي أرسلوها إلى آسيا بالانخفاض على مدار القرن من مئة وإحدى وخمسين سفينة إبان العقد الأول إلى ثلاث وأربعين سفينة فقط إبان العقد الأخير من القرن السادس عشر، فقد عُوِّض هذا النقص في عدد السفن بالزيادة في الحجم المتوسط للسفن (من ٢٨٣.٣ طن إبان العقد الأول من القرن السادس عشر إلى ١١٤٤.٢ طن

(٦٢) الحمولة الطنية tonnage مقياس للسفن من حيث حمولتها بالأطنان، نظراً لاختلاف حجم السفن وسعتها [المترجم].

إبان العقد الأخير من القرن نفسه) والزيادة في نسبة السفن التي عادت إلى البرتغال من ٥٨٪ إلى ٩٣٪ على مدار الفترة نفسها. وتمثلت نتيجة ذلك، كما يوضح الشكل، في نمو بطيء، لكن ثابت، في الحمولة الطنية العائدة إلى لشبونة على مدار القرن، ولم تنخفض إلا إبان العقد الأخير من القرن، وهو العقد الذي ظهر فيه الهولنديون لأول مرة في المياه الآسيوية.

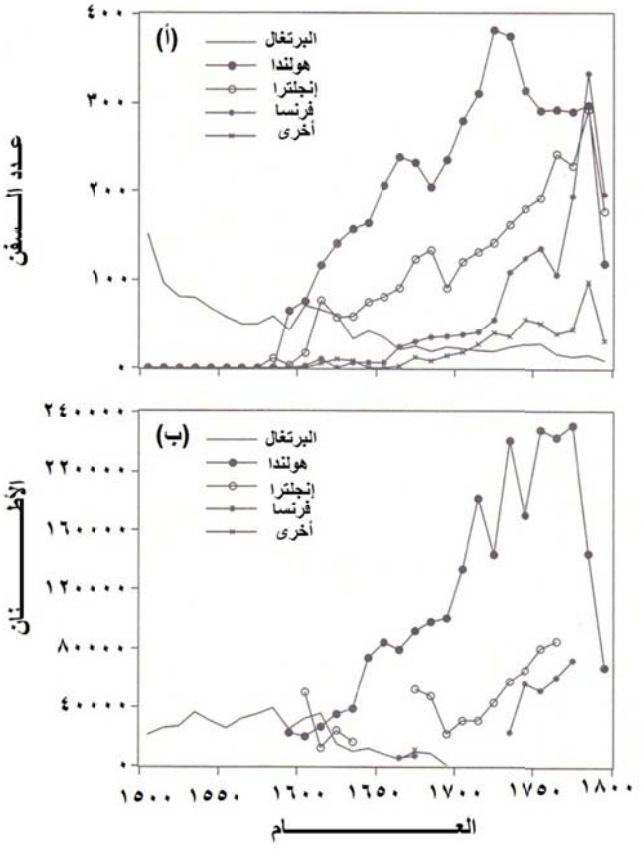

الشكل (٤- ٥) التجارة حول رأس الرجاء الصالح إبان الفترة ١٥٠٠- ١٨٠٠ : (أ) أعداد السفن المبحرة إلى آسيا لكل عقد، (ب) الحمولة الطنية العائدة إلى أوروبا

المصدر: de Vries (2003)

وبداية من هذه النقطة فصاعداً، بدأ الهولنديون يرسلون سفناً إلى آسيا أكثر من البرتغاليين أو أية دولة أخرى، واستمرت هذه الميّزة لقرنين تقريباً حتى العقد التاسع من القرن الثامن عشر. ونظراً لأن السفن الهولندية (والبرتغالية) كانت دائماً أكبر من السفن الإنجليزية أو الفرنسية، فإن الميّزة الهولندية في أعداد السفن المبحرة تتحول إلى ميْزة أكبر من حيث الحمولة الطنية العائدة إلى أوروبا. أما بالنسبة للبرتغاليين، فقد أخذت الحمولة الطنية إلى لشبونة تتراجع بثبات طوال القرن السابع عشر. وبحلول منتصف القرن، لم تعد البرتغال منافساً جدياً على طريق رأس الرجاء الصالح الذي اكتشفوه قبل قرن ونصف. وكانت الأسبقية في التجارة العابرة للقارات بين أوروبا وآسيا قد انتقلت بوضوح إلى شركة الهند الشرقية الهولندية والجمهورية الهولندية، على الرغم من اضطرارهم لمقاومة منافسيهم الإنجليز لكي يحتفظوا بصدارتهم.

على أن الهولنديين، كما يثبت باركر، لم يحققوا انتصارهم بسهولة. فقد تطلبت مقاومة الجيوش الإسبانية الضخمة مبالغ كبيرة سنوياً، ارتفعت من ثلاثة ملايين فلورين في العام ١٥٩١ إلى تسعة ملايين في العام ١٦٠٧، ثم ثلاثة عشر مليوناً في العام ١٦٢٢، ثم تسعة عشر مليوناً في العام ١٦٤٠[١٠٧]. ولذلك اضطروا إلى رفع الضرائب، وبلغ الدين الوطني لمقاطعة هولندا وحدها مئة وثلاثة وخمسين مليون فلورين في العام ١٦٥١. لكن الفرق الكبير عن إسبانيا هو أن معظم هذا الدين كان داخلياً من أمستردام وبأسعار فائدة انخفضت من ١٠٪ إبان العقد الأول من القرن السابع عشر إلى ٥٪ إبان العقد الخامس من القرن نفسه، إلى ٤٪ بعد العام ١٦٥١، وذلك بفضل النزوع الكبير لدى الهولنديين نحو الادخار، على الرغم من طريقة الحياة المسرفة لأمراء التجارة وطبقة الحكام.

كانت شركة الهند الشرقية الهولندية- كما رأينا- مربحة جداً، لكنها استغرقت عقوداً لحشد بنيتها التحتية العسكرية والتجارية، فيما كانت شركة الهند الغربية قضية خسارة على مدى سنوات وجودها كلها تقريباً. ويمكن الدفع بأن تجارة المسافات الطويلة العابرة للقارات على الرغم من كل بريقها ورونقها، كان إسهامها في الازدهار الحقيقي للعصر الذهبي الهولندي أقل من "التجارة الأم" الرتيبة في البلطيق وصيد

الرنغة. فمن بين أربعة الآلاف وثلاثمئة سفينة التي شَغّلها الهولنديون في العام ١٦٣٤ ، ضم أسطول الصيد ألفين ومئتين وخمساً وعشرين سفينة، وأسطول البلطيق والبحر الأبيض المتوسط ألفاً وسبعمئة وخمسين سفينة، فيما لم يكن أسطول جزر الهند الشرقية والغربية يزيد على ثلاثمئة سفينة[١٠٨]. ولذلك يجب ألا تفوتنا حقيقة أن التجارة الأوروبية الداخلية وكذلك التجارة الآسيوية الداخلية في العصر الحديث المبكر كانت أكبر كثيراً في الحجم والقيمة من تجارة التوابل والحرير والعبيد التي كانت تعبر محيطات العالم. على أن ذلك لا يعني بحال من الأحوال إنكار أهمية ما تحقق إبان الفترة ١٥٠٠- ١٦٥٠ على طريق خلق بدايات اقتصاد عالمي بمعنى الكلمة.

روسيا والسويد ومنطقة البلطيق ١٥٠٠–١٦٥٠

قبل أن نترك أوروبا، قد يكون من المفيد أن نتوقف قليلاً لالتقاط خيوط قصة صعود روسيا التدريجي إلى الصدارة كقوة أوراسية رئيسة، لأن ذلك يقدم مثالاً آخَر مدهشاً للنزعة التوسعية الأوروبية في تلك الفترة. رأينا فيما سبق أن دوقية موسكو الكبرى حققت في عهد إيفان الثالث وفاسيلي الثالث توسعاً هائلاً، حتى إن إيفان الرابع (١٥٣٣-١٥٨٤) حين ورث عرش أبيه وهو طفل في الثالثة من عمره كان حاكماً لدولة قومية قوية. وأطلقت تطلعاته في شبابه صراعاً ممتداً على السلطة بين أحزاب أرستقراطية مختلفة، انتهى بتتويجه قيصراً لكل روسيا في العام ١٥٤٧ ، وليس أميراً أكبر لموسكو وحسب. وزعم إيفان أنه وريث الأباطرة البيزنطيين ورأس "روما الثالثة"، لكنه على الرغم من هذه الادعاءات عُرِف أكثر للتاريخ باسم إيفان الرهيب. ففي فترة مبكرة من عهده، قوى الجيش بإنشاء كتائب المسكيتيين[٦٣]، المعروفة باسم استريليتس streltsy، لتكون متمماً لسلاح الفرسان التقليدي، كما عزز سلاح المدفعية وأرتال الحصار. وقد أثمرت هذه الإجراءات ضمان النصر الكبير على خانية قازان في منطقة الفولغا الوسطى في العام ١٥٥٢ الذي فتح الطريق شرقاً إلى سيبيريا، وعلى نهر

(٦٣) المسكيتي هو الجندي المسلح بالمسكيت musket وهي بندقية قديمة الطراز كانت خاصة بجنود المشاة [المترجم].

الفولغا إلى اصطراخان[٦٤] على بحر قزوين. وضُمّ الكثير من نبلاء التتر إلى الخدمة الروسية في هذه المرحلة، ما عزز سلاح الفرسان الذي تمكن إيفان من نشره ضد القبائل التترية المستقلة، وفي الحرب التي شنها بعد ذلك على ليفونيا[٦٥] في الغرب.

اعتبر الروس فتوحات قازان، ولاحقاً خانية اصطراخان، انتصارات للحملة الصليبية المسيحية الأرثوذكسية ضد المسلمين الكفار. لكن هذه الفتوحات أدخلت موسكو في نزاعات مطولة مع التتر القرميين والإمبراطورية العثمانية على حدودها الجنوبية. لكن في الشرق، "كان غزو قازان بداية لعملية ضم سيبيريا"[١٠٩]. وكان ضم سيبيريا بدوره العامل الأهم المسؤول عن تحول موسكو القارية المحاصرة إبان القرون الوسطى إلى الإمبراطورية الكبرى لبيتر الأكبر وكاثرين الكبرى. وقد رخّص إيفان لسلالة من النبلاء تدعى استروغانوف Stroganovs ممارسة الاستعمار وجمع الفراء فيما وراء تخوم قازان، وألحقت فرقة من القوزاق[٦٦] هزيمة بخان سيبيرين[٦٧] في العام ١٥٨٢، ما فتح سيبيريا الفسيحة أمام التوسع والاستعمار الروسيين. فشقّت أعداد صغيرة من الصيادين، تلتها قوات ومستوطنون، طريقهم تدريجياً إلى الشرق على طول سلسلة من الحصون والمحطات التجارية، إلى أن وصلوا إلى المحيط الهادي في أوخوستك Okhotsk بحلول العقد الخامس من القرن السابع عشر. وكان فراء السمور والقاقم وأنواع الفراء الثمينة الأخرى تُجمَع في الغالب في شكل جزية من القبائل المحلية التي أمكن التغلب على مقاومتها للاستغلال الروسي بسهولة ووحشية.

ومع أن المبادرة للتوسع كانت خاصة، فإن الحكومة في موسكو كانت تشرف

---

(٦٤) اصطراخان Astrakhan حالياً مدينة ومنطقة بجنوب روسيا الأوروبي [المترجم].

(٦٥) ليفونيا Livonia إقليم قديم مستقل على الشواطئ الشرقية لبحر البلطيق، تتقاسمه حالياً إستونيا ولاتفيا [المترجم].

(٦٦) القوزاق Cossacks مجموعة عرقية من السلاف الشرقيين يقطنون السهول الجنوبية في شرق أوروبا وروسيا وكازاخستان وسيبيريا، شكّلت خطاً من القلاع والحصون كان يمتد من نهر الفولغا الأوسط باتجاه مدينتي ريازان وتولا ثم ينعطف نحو الجنوب ويصل إلى نهر الدنيبر في منطقة مدينتي بوتيفل وبيرياسلاف [المترجم].

(٦٧) سيبيرين Sibirin أو سيبير Sibir خانية تركية مغولية في سيبيريا الغربية [المترجم].

على العملية من خلال إدارة متخصصة لسيبيريا أنشئت في العام ١٦٣٧ لضمان أن تحصل الدولة على العُشر من أفضل الفراء. ولم يكن الهدف هو ضم إقليم بغرض الزراعة والاستيطان المكثف، وإنما انتزاع الثروة من خلال تجارة الفراء، وكان الجنود والإداريون والمستوطنون مجرد البنية التحتية المطلوبة للحصول على إمدادات الفراء. ولم تعر عملية جمع الفراء انتباها لاعتبارات الاستمرارية البيئية، فكانت العملية تتحرك شرقاً أكثر فأكثر كلما استنفدت الإمدادات. وبحلول القرن التاسع عشر، أصبحت إلدورادو El Dorado موطن الفراء مجرد بريّة متجمدة، ولم تعد تصلح إلا كمنفى للمدانين والمنشقين السياسيين. لكن في أواخر القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر، كان الفراء السيبيري مصدراً رئيساً للثروة للإمبراطورية الروسية. وارتفع عدد السكان الروس في سيبيريا من مئة وتسعة وستين ألفاً من الذكور البالغين في العام ١٧١٩ إلى أربعمئة واثنى عشر ألفاً في العام ١٧٩٢[١١٠].

وإلى الغرب، كانت الموانئ الكبرى مثل ريفال (طالين Tallin) وريغا مدناً حرة أو جمهوريات تجارية، بينما تراجع فرسان الفرقة الليفونية كثيراً عن حالة القوة القتالية الهائلة التي تميّزوا بها في السابق. ولذلك حقق الهجوم الروسي في العام ١٥٥٨ نجاحاً أولياً كبيراً، إذ استولى الروس على دوربات Dorpat ونارفا Narva، لكنهم فشلوا أمام ريغا وريفال. وبمجرد استيلاء إيفان على نارفا، تقاطرت عليها السفن من مختلف أنحاء شمال أوروبا للتجارة معه وكانت هذه السفن محل ترحيب[١١١]. فقد استخدم إيفان نارفا كمنفذ لصادرات روسيا التقليدية مثل الفراء ولاستيراد الأسلحة والإمدادات العسكرية. وكانت المبيعات التجارية وفيرة ومتنوعة جداً لدرجة أن أسعار معظم المواد، بما في ذلك المعادن النفيسة، كانت أدنى هناك منها في موانئ البلطيق الأخرى. وقد انعكس حجم التجارة في نارفا في الزيادة الكبيرة في عدد السفن التي كانت تمر من هناك خلال مضيق إلزينور Elsinore، التي بلغت ستاً وسبعين سفينة على الأقل في العام ١٥٦٧، ويؤكد كيرشنر Kirchner أن التجارة في نارفا كانت تشمل بالتأكيد مئات السفن في العام، ما جعل منها منافساً لريغا التي كانت الميناء الأكبر في شرق البلطيق.

فقد حدث تدافع على المشاركة في الإمكانات التجارية التي فتحها التدخل الروسي. وأدى التنافس الناتج إلى اندلاع حرب السبعة أعوام الشمالية (١٥٦٣-١٥٧٠) التي قامت فيها السويد بعد الاستيلاء على ريفال في العام ١٥٦١، بشن الحرب على الدنمرك وبولندا وليتوانيا ولوبيك وهو الميناء الرئيس للرابطة الهانزية. وظلت روسيا محايدة، فازدهرت نارفا بانفتاحها أمام التجارة من كل الاتجاهات. لكن في النهاية لم يكن منافسو روسيا الأقوياء مستعدين للوقوف مكتوفي الأيدي أمام هذه المكاسب الكبيرة التي حققتها روسيا. فتدخلت الدنمرك والسويد، والأهم كثيراً منهما مملكة بولندا - ليتوانيا، فوجد إيفان نفسه متورطاً في أعمال عدائية مطولة على طول جبهة غربية ممتدة. واستغل التتر القرميون الموقف أيضاً لشن غارة مدمرة على موسكو في العام ١٥٧١. واندمجت بولندا وليتوانيا في مملكة ثنائية أو كومونويلث بمقتضى معاهدة لوبلين Lublin في العام ١٥٦٩، وانتخبتا الأمير الترانسلفاني ستيفن باتوري Stephen Batory (١٥٧٦-١٥٨٦) حاكماً لهما. واتضح أنه قائد عسكري عظيم، إذ هدد دفاعات روسيا الغربية في عدة نقاط. وسيطر السويديون على معظم الشريط الساحلي حول خليج فنلندا، واستولوا على نارفا في العام ١٥٨١.

كان لا بد من التوصل إلى سلام مع مملكة بولندا- ليتوانيا عبر هدنة يام زابولسكي Yam Zapolskii في العام ١٥٨٢ التي أعادت الحدود إلى وضعية ما قبل الحرب، واعترفت للسويديين بالوضع الراهن غير المواتِ تماماً للجانب الروسي. واستغرق الأمر قرناً ونصف قرن تقريباً لفتح النافذة البلطيقية من جديد على يد بيتر الأكبر. ويدفع كيرشنر بأن روسيا لو تمكنت من الحفاظ على نارفا وتثبيت أقدامها فيها، لتسارعت عملية تغريب Westernization روسيا خلال كل هذا الوقت الذي ضاع. لكن بدلاً من ذلك، كان القرن السابع عشر قرناً مهدراً تقريباً من التاريخ الروسي، تميّز بالتوسع الناجح في سيبيريا والشرق كما رأينا، لكن على حساب تعزيز "الطابع الآسيوي" Asiaticization لبنيتها الاجتماعية السياسية[١١٢]، بمعنى اشتداد مركزية السلطة الاستبدادية عنها في الغرب.

وتدهور عهد إيفان الرابع بعد بدايته الواعدة إلى انفجار متواصل للعنف والقمع. وقد حاول المؤرخون الروس، للحقبتين القيصرية والسوفيتية على حد سواء، أن يبرروا حتى أكثر أفعال بيتر شذوذاً وسادية بأنها كانت مدفوعة بالمصالح القومية، على اعتبار أنها كانت خطوات ضرورية لبناء دولة قومية فعالة قادرة على مواجهة التهديدات الخارجية الكثيرة التي كانت تتهددها. فيما يدفع ريتشارد هيللي Richard Hellie وإيزابيل دي ماداریاجا Isabel de Madariaga بصعوبة الإقرار بوجود أية ضرورة وراء إعدام آلاف الأبرياء وتعذيبهم، وذبح مدينة كاملة بعد ثورة نوفغورود المزعومة، من أجل التقدم الاجتماعي[١١٣]. ويقدم الهلع الحاد الذي استولى على ملك مستبد تفسيراً أكثر معقولية بكثير لهذه الأفعال الوحشية الجنونية غير المبررة التي انتهت بموته في العام ١٥٨٤. كما يصعب أيضاً قبول منطق المصالح القومية في وقت دُمِرت فيه البلاد وهُدِّمت لجيل على الأقل في أثناء الفوضى الناتجة عن النزاع على السلطة والمطالبين المزيفين بها وثورات الفلاحين والغزو من الخارج، التي عُرِفت في التاريخ الروسي باسم "زمن القلاقل"، وهي جميعاً أحداث أطلقتها الأفعال الوحشية التي كان إيفان الرابع نفسه مسؤولاً شخصياً عنها. لكن روسيا بدأت تتعافى وئيداً في عهد سلالة رومانوف الجديدة التي وصلت إلى السلطة في العام ١٦١٣ بتأييد عامة الناس وتهليلهم، في نشوة الفرحة بطرد جيش بولندي محتل من موسكو.

وتميّزت بقية القرن السابع عشر بالصراع الثلاثي المطول نفسه بين روسيا ومملكة بولندا- ليتوانيا والسويد. كان النزاع بين روسيا ومملكة بولندا-ليتوانيا على السيطرة على أوروبا الشرقية، وتحديداً أراضي بيلاروسيا وأوكرانيا الحاليتين. وكان البولنديون قد استردوا سمولنيسك في العام ١٦١١، ثم استعادها الروس بشكل دائم في العام ١٦٥٤. وأدت الثورة القوزاقية الكبرى إبان العقد السادس من القرن السابع عشر بقيادة بوغدان خملنيتسكي Bogdan Khmelnitsky إلى تدمير بولندا، ما مكّن روسيا من الاستيلاء على كييف وكل أوكرانيا شرق نهر الدنيبر من خلال هدنة أندروسوفو

Andrusovo في العام ١٦٦٧، وأكدت ملكيتها بمعاهدة أخرى في العام ١٦٨٦. وبات جلياً في ذلك الوقت أن الرابطة الكاثوليكية الرومانية المركبة لا تستطيع أن تحشد الوحدة والموارد الكافية لمجاراة عدوها الأرثوذكسي الاستبدادي.

كانت السويد خصماً هائلاً آخر لروسيا. فعلى الرغم من أن عدد سكانها لم يزد عن المليون بكثير، فقد كانت هذه الدولة تمر "بعصر عظمتها" باعتبارها القوة المهيمنة في شمال أوروبا والبلطيق. ترسخت دعائم قوة السويد بفضل الإدارة الحصيفة لجوستاف الأول فاسا Gustav I Vasa (١٥٢٣-١٥٦٠)، ما مكّن خلفاءه من مقاومة الدنمركيين والشروع في بناء إمبراطورية في فنلندا وليفونيا واستونيا، وهي الإنجازات التي تُوِّجت بالانتصارات العسكرية والدبلوماسية الرائعة لحفيده جوستاف الثاني أدولف Gustav II Adolf (١٦١١-١٦٣٢). وفي مقابل ضعف السويد بسبب أرضها الجدباء نسبياً ومواردها الزراعية الضئيلة، فقد كانت تمتلك مخزوناً ضخماً من خام النحاس والحديد، وفر لقواتها المسلحة "أوتار الحرب"، واستُخدِم هذا المخزون أيضاً لتمويل الواردات المدنية الضرورية مثل القمح والملح في أوقات الطوارئ. وتوفرت الموارد البشرية اللازمة للمهمة الإمبريالية من خلال المجتمع المنفتح نسبياً المكون من طبقة نبلاء ريفية ومواطنين حضريين، جنباً إلى جنب مع تدفق رجال الأعمال والجنود الأجانب الموهوبين، في معظمهم من ألمانيا وهولندا واسكتلندا.

أجرى مايكل روبرتس Michael Roberts مقارنة بين رؤى ما يسمى المدرسة القديمة من المؤرخين السويديين ورؤى ما يسمى المدرسة الجديدة[١١٤]. ترى المدرسة القديمة أن الأمن القومي لدولة ضعيفة في بيئة عدائية كان الهدف الرئيس للمغامرات الإمبريالية من جانب السويد. فيما شدّدت المدرسة الجديدة على هيمنة الدافع الاقتصادي، تحديداً الرغبة في إحكام احتكار تجارة البلطيق المربحة، من روسيا على الطرف الشرقي إلى الدنمرك والمضيق على الطرف الغربي، ما أوجب السيطرة على موانئ رئيسة مثل نارفا وريفال وميمل Memel وريغا ودانزيغ وامتداداتها الداخلية. ودفع روبرتس وآخرون على نحو مقنع بأن الأدلة لا تؤيد تفسيراً اقتصادياً صارماً وضيقاً للسياسة السويدية، مع أن التجارة والرسوم الجمركية لم تغب يوماً. والقضية

هنا هي نفسها جدل "القوة في مقابل الوفرة" حول المركنتيلية الذي حسمه جاكوب فينر، وهذا الجدل سيكون البؤرة الرئيسة للفصل التالي، ومؤداه ببساطة أن إنجاز أحد الهدفين يعزز إنجاز الهدف الآخر[١١٥]. ومن الأحوط القول بأن الهدف السويدي تمثل في تأكيد السيادة على بحر البلطيق، لأن ذلك كان ضرورياً لإنجاز كل من الأمن القومي والسيادة الاقتصادية على المدى البعيد، بغض النظر عن أيهما كانت له الأسبقية.

كانت صادرات البلطيق الرئيسة تتمثل في القار والقطران والقنب والخشب، وهي جميعاً كانت مدخلات ضرورية للأساطيل التوسعية والأساطيل التجارية للهولنديين والإنجليز، وكانت تُنتَج بوفرة في النرويج وفنلندا وروسيا، فيما كانت السلع المصنعة والمنتجات الشرقية هي الواردات الرئيسة، فضلاً عن الواردات التقليدية المتمثلة في الملح وأسماك القد والرنغة. ومن بين الموانئ البلطيقية، كانت دانزيغ الواقعة على فم نهر فيستولا Vistula المنفذ الرئيس لصادرات القمح البولندية والواردات من أوروبا الغربية التي كانت تباع أعلى النهر وفي داخل البلاد في مقابل القمح. وكان القمح هو السلعة التصديرية الرئيسة، حيث شكّل من ٧٠ إلى ٨٠٪ من القيمة الإجمالية، لكن دانزيغ كانت أيضاً منفذاً للنحاس والرصاص والحديد المجري والسلع القادمة من ليتوانيا وروسيا التي كانت تنقل عبر نهر نيمن Niemen أو خلال كونيغسبرغ Konigsberg[١١٦]. وكان المقصد الرئيس لصادرات دانزيغ إبان القرن الخامس عشر هو لوبيك، وتحوّل إبان القرن السادس عشر إلى هولندا بالدرجة الأولى، ثم إلى إنجلترا إبان القرن السابع عشر. فقد اتخذ الإنجليز من ميناء إلبنغ Elbing الصغير مركزاً تجارياً للشركة الإنجليزية للأراضي الشرقية English Eastland Company من العام ١٥٨٠ إلى العام ١٦٢٨، ثم نقلوه بعد ذلك إلى دانزيغ.

إلى من آلت الهيمنة على ذلك العالم المزدهر للتجارة البلطيقية من بين هؤلاء المتنافسين الكثيرين؟ ظلت مدن الرابطة الهانزية تمتلك أساطيلها وشبكاتها التجارية، لكنها لم تكن تسيطر على مناطقها الداخلية، وكانت تفتقر إلى الموارد المالية والعسكرية اللازمة لمنافسة الدول القومية الناشئة في المنطقة. فكما حدث مع الفرسان التيوتونيين والليفونيين، أصبحت مدن الرابطة من مخلفات القرون الوسطى في العصر الحديث

المبكر. فقد كان باستطاعتها منافسة نوفغورود وبسكو أو حتى السيطرة عليهما حين كانتا دولتين مدينيتين جمهوريتين، لكن ليس بعد أن استوعبهما توسع التنين المسكوفي. وكان باستطاعة الجمهورية الهولندية أن تنقل معظم الشحن في البلطيق، لكنها كانت مشغولة بطرد الغاصبين الهابسبرغيين في الداخل وإدارة إمبراطوريتها الاستعمارية في جزر الهند الشرقية والغربية، وكانت تكسب المزيد من التجارة مع جميع الأطراف.

ولذلك حُسِم الصراع على السيادة على البلطيق إبان القرن السابع عشر لصالح السويد في عهد جوستاف الثاني أدولف، التي تفوقت بشكل حاسم على الدنمرك في عهد كريستيان الرابع، باعتبارها القوة الاسكندينافية القيادية في أثناء حرب الثلاثين عاماً (١٦١٨-١٦٤٨) وبعدها. تجلى هذا التحول في القوة النسبية للمملكتين في استيلاء السويد على إسكانيا في العام ١٦٥٨، ما أعطاها سيطرة مشتركة مع الدنمرك على المضيق الضيق الذي يفصل بحر الشمال وبحر البلطيق. وكانت مملكة بولندا-ليتوانيا قد ضعفت كثيراً بسبب الحرب التي شنها عليها ملك السويد تشارلز العاشر (١٦٥٤-١٦٦٠) من العام ١٦٥٥ إلى العام ١٦٦٠ المعروفة في التاريخ البولندي باسم حقبة "الطوفان"، مع أنها شهدت تعافياً قبل التقسيم الكارثي الذي تعرضت له من جانب روسيا وبروسيا، ثم النمسا لاحقاً إبان القرن الثامن عشر. وتراجعت تجارة دانزيغ بعد "الطوفان" وأخذت تخسر أمام موانئ أخرى مثل ريفال وريغا التي كانت تخضع للسويديين المنتصرين.

وعلى الرغم من هذه النجاحات العسكرية، لم تحقق السويد السيطرة الاحتكارية التي كانت تبتغيها على تجارة البلطيق. يرجع ذلك بالدرجة الأولى إلى فتح طريق بحري جديد وفصل جديد في تاريخ التجارة العالمية، حين رسْت سفينة إنجليزية بقيادة ريتشارد تشانسيلور Richard Chancellor على شاطئ روسيا القطبي على أحد خلجان البحر الأبيض في العام ١٥٥٣. كانت سفينة تشانسيلور هي الناجية الوحيدة من ثلاث سفن كانت تحاول البحث عن ممر شمالي شرقي إلى الصين وجزر الهند الشرقية. شق تشانسيلور وأفراد طاقمه طريقهم إلى موسكو والتقوا بالقيصر الذي انتبه سريعاً إلى الأرباح الممكنة من التجارة. وعلى الرغم من أن هذا الممر كان مجمداً أغلب

العام، فإن شركة موسكو المكونة حديثاً في ميناء أركانجل دخلت في تجارة مربحة. وأخذت روسيا تصدّر سلعاً مثل الحبال والشمع والشحم والجلود والفراء والخشب في مقابل ثمر البلوط. وكان الكتان والقنب من الصادرات الروسية المهمة جداً، وكانا يشحنان في الغالب من موانئ البلطيق، بينما كان القمح يشحن من أركانجل في حالة واحدة فقط، وهي ارتفاع الأسعار كثيراً، لأنه في هذه الحالة فقط كان يمكن تحمل تكاليف النقل العالية عبر الطريق القطبي. وكانت واردات روسيا هي الأقمشة والأنسجة القطنية والمنتجات المعدنية والأسلحة ومواد الحرب والنبيذ والملح والمعادن النفيسة.

وفي العام ١٥٨٧، عاد ما لا يقل عن عشر سفن من أركانجل إلى إنجلترا، ويقال إن أربع عشرة أو خمس عشرة "سفينة تجارية ضخمة" كانت تبحر سنوياً إلى الميناء الواقع على البحر الأبيض ومنه إبان العقد الأخير من القرن السادس عشر. لكن لم يمضِ وقت طويل قبل أن يتفوق الهولنديون على الإنجليز في تجارة أركانجل كما رأينا[١١٧]. ففي العام ١٦٠٠، رسّت ثلاث عشرة سفينة هولندية في أركانجل إلى جانب اثنتي عشرة سفينة إنجليزية، لكن في العام ١٦٠٤ كان عدد السفن الهولندية والإنجليزية سبع عشرة وتسعاً على التوالي. وفيما بعد، استمر توافد الهولنديين. وتمثلت الأسباب وراء النجاح الهولندي في سيطرتهم الكبرى على الموارد المالية والوصول إلى توابل الهند الشرقية، ما جعلهم أقدر على خدمة السوق الروسي بسفن أكبر وأقوى للطريق القطبي عالي الطلب، وتأسيس محطات تجارية في موسكو وفولوغدا Vologda لتخزين السلع الضرورية. وتمكّنوا أيضاً من توفير أقمشة صوفية مصبوغة وتامة الصنع أعلى جودة وتوفير إمدادات أكبر من الفضة لتلبية العجز في قيمة التجارة الغربية مع روسيا. وقام القيصر أليكسيس الساخط Indignant Alexis (١٦٤٥-١٦٧٦)، أبو بيتر الأكبر، بطرد الإنجليز في العام ١٦٤٩

بسبب ارتكابهم جريمة قطع عنق ملكهم(٦٨). وكانت تلك مرحلة الصعود المبكر للسبق الاقتصادي الهولندي ، كما أشرنا في معرض الحديث عن المنافسة الإنجليزية -الهولندية في جزر الهند الشرقية، وهو السبق الذي كان واضحاً أيضاً في المياه القطبية. ولا بد أن نلاحظ أيضاً الأدلة القوية على مدى العولمة التي تحققت في أوائل القرن السابع عشر، حيث كانت توابل الهند الشرقية وفضة العالم الجديد عوامل مهمة في تجارة أوروبا الشمالية.

وإلى جانب هذا الطريق الشمالي، توسعت التجارة البرية عبر بولندا بين أوروبا الشرقية والغربية إبان القرن السادس عشر، وواصلت النمو على الرغم من بعض الانتكاسات إبان القرن السابع عشر. فكانت قطعان كبيرة من الماشية تساق من سهول أوكرانيا والمجر ومولدافيا ووالاشيا الشاسعة للذبح في مدن غربية مثل أوغسبرغ ونورمبرغ وريغنسبرغ وأولم Ulm، مروراً عبر لوبلين Lublin وكراكوف Krakow وبوزنان Poznan وبريسلاو Breslau على طول الطريق. وكان الفراء والجلود الروسية وكذلك الشمع الروسي والبولندي ترسل براً أيضاً من نوفغورود وبسكو إلى مراكز مثل لايبزيغ Leipzig التي كانت تضم سوقاً شهيراً تُصرّف فيه هذه السلع في مقابل المنتجات الغربية.

يؤكد آتمان Attman، على خلاف الرأي السائد المعاكس، أن "وحدة السوق الروسي" كانت قد تحققت، وذلك لأن معظم السلع المتضمنة كان من الممكن نقلها عبر الطرق الثلاثة جميعها، أي عبر البحر الأبيض والموانئ البلطيقية وبراً عبر بولندا-ليتوانيا، وهو ما حدث كثيراً[١١٨]. ورأي آتمان الذي ظهر لأول مرة في ورقة بحثية في العام ١٩٤٤، لقي تأييداً شديداً من آرن أوبيرغ Arne Ohberg[١١٩]. يشير أوبيرغ إلى طريق أركانجل باعتباره العامل الحاسم الذي منع السويديين من فرض الاحتكار الذي حلموا به طويلاً على التجارة الروسية مع الغرب. ولذلك ففي أثناء حرب الثلاثين عاماً

(٦٨) شهدت إنجلترا سلسلة من الحروب الأهلية بين العامين ١٦٤٢ و١٦٥١ بين أنصار البرلمان وأنصار المَلكية، وأعدم البرلمانيون الملك تشارلز الأول في عام ١٦٤٦ وأسسوا حكومة جمهورية برجوازية لمدة عشر سنوات، قبل أن تعود المَلكية في شخص تشارلز الثاني ابن الملك القتيل في العام ١٦٦٠ [المترجم].

التي سعى جوستاف الثاني أدولف ومستشاره أكسيل أوكسينتيرنا Axel Oxenstierna من خلالها إلى فرض الاحتكار على إمداد القمح البلطيقي إلى سوق أمستردام من خلال السيطرة على فيستولا، أدى الارتفاع الناتج في أسعار القمح إلى جذب صادرات القمح من أركانجل، ما أحبط المحاولة. وحاولت السويد بانتظام أن تحوّل تجارة أركانجل إلى الموانئ البلطيقية التي كانت تسيطر عليها بتقليل الرسوم الجمركية إلى ٢٪، فردّ الروس برفع رسوم التصدير عندهم لموازنة هذا الإغراء لتجارهم بالتخلي عن الطريق الشمالي. وفشلت الجهود الدبلوماسية السويدية لإقناع الروس بنقل تجارة أركانجل إلى الموانئ البلطيقية، لأن الروس لم يكونوا مستعدين لقبول مخاطرة الخضوع لاستغلال السويد إذا فعلوا ذلك، على الرغم من التطمينات الجدية من السويديين بأنهم لن يفعلوا ذلك. ويذكر أوبيرغ أن "طريق البحر الأبيض كان دائماً سبباً لعدم الإحساس بالأمن، حيث كانت الحكومة السويدية تضعه في الحسبان في أي إجراء تتخذه يتعلق بالتجارة البلطيقية"[١٢٠].

جنوب شرق آسيا إبان عصر التجارة

نتناول فيما يلي بعض نتائج رحلات الاستكشاف على المنطقة التي كانت على امتداد ذلك الوقت الهدف غير المقصود للرغبة الأوروبية، وهي جنوب شرق آسيا. لكن الوصول إلى منظور صحيح يستلزم أن نفحص الفترة ١٥٠٠- ١٦٥٠ من وجهة نظر جنوب شرق آسيا نفسها، وليس من وجهة نظر دولة الهند البرتغالية أو شركة الهند الشرقية الهولندية أو شركة الهند الشرقية البريطانية كما كنا نفعل حتى هذه النقطة، أو كما لو "كنا على ظهر سفينة هولندية" بالتعبير الشهير لفان لور van Leur[١٢١]. ومن ثم فإننا هنا نبحث حظوظ الكيانات السياسية بجنوب شرق آسيا، سواء على اليابسة الآسيوية نفسها أو في الأرخبيل، آخذين في الحسبان تفاعلاتها مع الهند والصين والأوروبيين. على أن تأثير عصر التجارة على جنوب شرق آسيا يتجاوز التجارة بكثير، حيث طال توازن القوة بين الدول والمناطق، فضلاً عن مجال ثقافي مهم مثل انتشار الإسلام والمسيحية، وإلى حد معين البوذية الثهروادية، التي اقترنت

جميعها مع توسع التجارة[١٢٢]. وكما في الحالة اليابانية، كان من النتائج الرئيسة للوجود الأوروبي الانتشار السريع للتقنية العسكرية الأوروبية، ما أدى إلى الحسم السريع للمعارك العسكرية، وهو ما ساعد بدوره في ترسيخ السيطرة السياسية المركزية على مناطق أوسع.

تمكّنت مملكة التل البورمية الصغيرة المعروفة باسم تونغنغو Taungngu على حدود آفا وبيغو بقيادة ملكين محاربين عظيمين، هما تابنشويهتي Tabinshwehti (١٥٣١-١٥٥٠) وباينونغ Bayinnaung (١٥٥١-١٥٨١)، من غزو بيغو ثم آفا، وبذلك جمعت العائدات من كل من التجارة المنقولة بحراً والزراعة. أسس هذان الملكان إمبراطورية هائلة هزمت أيوثايا ودمرتها في العام ١٥٦٤ والعام ١٥٦٩ وحوّلتها إلى دولة تابعة لها، وفعلت الشيء نفسه مع دولة تشينغ ماي Chieng Mai الواقعة في شمال تايلند الحالية ومعظم لاوس الحالية. وبذلك أصبح باينونغ حاكم أكبر إمبراطورية في تاريخ جنوب شرق آسيا. وقد أعجب به المراقبون الأوروبيون الذين قال فيه أحدهم، وهو التاجر البندقي قيصر فريدريك Caesar Fredericke: "إنه لا يمتلك جيشاً أو قوة بحرية، لكنه على البر يمتلك من الناس والممتلكات والذهب والفضة ما يفوق الأتراك العظماء ثروة وقوة"[١٢٣](٦٩).

بيد أن هذه الإمبراطورية البورمية الثانية كما أسماها هتين أونغ Htin Aung أثبتت أنها عابرة وقصيرة العمر[١٢٤]. فالأجزاء السيامية واللاوسية كانت تفصلها عن بورما سلاسل جبلية يصعب عبورها، ولذلك كان من الصعب أن تحافظ على إدارة موحدة للإمبراطورية كلها. ولذلك عُهِد بالمراكز المكوّنة للإمبراطورية إلى أقارب غير موثوقين للملك، وفي العام ١٥٩٩ سقطت العاصمة الرائعة بيغو ونهبت وأحرقت عن بكرة أبيها على أيدي تحالف بين حاكم تونغنغو وملك أراكان الذي جاء على رأس قوة كبيرة من المرتزقة البرتغاليين. واستعاد اثنان من أحفاد باينونغ، هما أنوخبيتلون Anaukhpetlun (١٦٠٥-١٦٢٨) وثالون Thalun (١٦٢٩-١٦٤٨)، الجزء البورمي

(٦٩) لكن في المقابل، رأى هارفي أن التاجر البندقي بالغ كثيراً حين قارن باينونغ بالسلطان العثماني الذي كان حينذاك سليمان القانوني بكل عظمته.

من الإمبراطورية. وجاء قرار الأخير بنقل العاصمة من بيغو على الساحل إلى آفا الداخلية بدلتا إيراوادي في العام ١٦٣٤ ليعكس تحولاً حاسماً عن "الانفتاح" الرائع للعصر الذهبي لتابنشويهتي وباينونغ والعودة إلى دولة زراعية أكثر "انغلاقاً" وانعزالاً، وهي نفسها الدولة التي سقطت في النهاية فريسة سهلة أمام البريطانيين. لكن ليبرمان Lieberman دفع بقوة بأن هذا القرار كان عقلانياً لدعم القاعدة الزراعية والعائدات البرية، مع الحفاظ في الوقت عينه على العائدات من تجارة ما وراء البحار والتجارة البرية المربحة مع الصين[١٢٥].

كان من بين المرتزقة والمغامرين البرتغاليين الكثيرين الذي ظهروا في جنوب شرق آسيا في ذلك الوقت فيليب دي بريتو Felipe de Brito، تلك الشخصية الغنية متعددة الجوانب، الذي بدأ حياته المهنية في خدمة ملك أراكان، وأبحر ضمن أسطوله الصغير في الهجوم على بيغو في العام ١٥٩٩. وتولى بعد ذلك قيادة ميناء سيريام Syriam المهم في دلتا إيراوادي، مع نحو خمسين آخرين من البرتغاليين. ولما أدرك دي بريتو الإمكانات التجارية الكبيرة لهذا الميناء، تحول سريعاً للعمل باستقلالية عن سيده الأراكاني بفرض رسوم جمركية على السفن وبناء قوة من البرتغاليين والمهجنين والمسلمين الهنود. ومن أجل تعزيز موقفه، ذهب إلى غوا للحصول على الاعتراف من نائب الملك، وعاد بتعزيزات وست سفن وابنة أخي نائب الملك نصف الجاوية دونا لويزا دي سالدانها Dona Luisa de Saldanha عروسا له. كانت سيريام تضم كنيسة وكاهنين يسوعيين كانا منهمكين في هداية الوثنيين إلى المسيحية، وأخذ دي بريتو ينهب الأضرحة البوذية برعونة، لصهر الأجراس البرونزية المقدسة لكي يصنع منها مدافع. كما حوّل النقل البحري بالقوة إلى سيريام، ما جعله يحتكر فعلياً مرور واردات ما وراء البحار إلى الداخل، فضلاً عن قيامه بغارات نهب على المراكز الداخلية. وأخيراً تحرك أنوخبيتلون، فحاصر سيريام واستولى عليها في العام ١٦١٢، قبل أن تصل التعزيزات من غوا وأراكان. وأُعدِم دي بريتو على الخازوق عقاباً على تدنيسه للمقدسات وظل على الخازوق ثلاثة أيام قبل أن يفارق الحياة، وبيعت دونا لويزا التعيسة في أسواق العبيد. وتم توطين البرتغاليين الناجين وكثير من المرتزقة المسلمين في قرى الداخل

البورمي وظل أحفادهم يخدمون في سلاح المدفعية بالجيوش البورمية الملكية حتى القرن التاسع عشر. وعلى الرغم من هذه الحوادث، لم يفقد أنوخبيتلون اهتمامه بالحفاظ على تدفق التجارة، وأرسل عدة عروض دبلوماسية إلى الهولنديين والبريطانيين وإلى آتشيه وحتى إلى غوا، لكن دون جدوى واضحة.

وفي سيام، أقام البرتغاليون علاقات دبلوماسية وتجارية مع أيوثايا بعد احتلالهم لمالاكا مباشرة، وسرعان ما انخرطوا في العمل كمرتزقة ومستشارين عسكريين في القوات المسلحة للمملكة، وبخاصة في مجال المدفعية. وكان قائد النهضة التايلندية بعد كارثة العام ١٥٦٩ هو ولي العهد الشاب نارسون Naresuan الذي أمضى شبابه في البلاط البورمي واكتسب سمعة كمحارب في القتال ضد الثوار نيابة عن هذا البلاط، قبل أن يعود إلى أيوثايا ويصبح ملكاً في العام ١٥٩٠. وظل نارسون حتى وفاته في العام ١٦٠٥ يقوم بحملات ناجحة على كل من البورميين والكمبوديين، واستعاد شينغماي Chiengmai واستولى على مينائي تافوي Tavoy وتيناسيريم Tenasserim من البورميين، وبذلك نال منفذاً على خليج البنغال. وتميّز عهده بتوسيع التجارة الدولية إلى الشرق مع تايوان والصين واليابان وجزر ريوكو وإلى الغرب مع سومطرة والهند والشرق الأوسط. وكانت جلود الأيل والأرز والمنتجات الغابية والقصدير هي الصادرات الرئيسة، فضلاً عن الفيلة إلى الممالك الهندية. وشيّد نارسون أسطولاً قوياً، بل إنه عرض الدفاع عن إمبراطورية مينغ ضد الاحتلال الكوري الذي هدد الصين في العام ١٥٩٢ بقيادة هيديوشي. كما قوّى الجيش باستيراد الأسلحة النارية من البرتغاليين والسيوف والمطارد الفولاذية من اليابان. وأصبحت سيام مقصداً مهماً لسفن "الختم الأحمر" اليابانية التي كانت شوغونية توكوغاوا تسمح لها بالتجارة قبل أن تتبنى سياسة العزلة إبان العقد الرابع من القرن السابع عشر. ويشير ريد إلى أن سيام استقبلت ستاً وثلاثين من هذه السفن إبان الفترة ١٦٠٤-١٦١٦، وهو عدد أكبر كثيراً من السفن اليابانية التي توجهت إلى أي ميناء آخر بجنوب شرق آسيا[١٢٦] (على الرغم من أن كمبوديا وكوشينشينا ولوزون بالفلبين كانت موانئ مهمة جداً هي الأخرى).

اعتمدت الممالك التايلندية والبورمية بشدة في صراعاتها البينية الطويلة على المرتزقة البرتغاليين وبنادق القربينة والمدافع، إلى جانب الفيلة الحربية التقليدية، كما استخدموا حيوانات الشتني[٧٠] كمنصة وحامل للقربينات و"الجنغال" Jingal وهي مدافع صغيرة[٧١]. كان النظامان في بورما وسيام ندين مساويين أحدهما للآخر في العائدات من تجارة ما وراء البحار والوصول إلى التقنية العسكرية المتقدمة، وقد تمكّنا بسهولة من السيطرة على مناطقهما الداخلية الخلفية، وبذلك كان عصر التجارة مسؤولاً عن قيام الدول المركزية القوية في كل من بورما وسيام. ويمكن رؤية حلقة الربط بين الوفرة والقوة أيضاً مجسدة في حالة فيتنام. فكما رأينا في الفصل السابق، فقد استولى لي ثان تون Le Thanh Ton على الجنوب في العام ١٤٧١، فيما تأكد صعوبة الحفاظ على المملكة موحدة دون تقسيم. فحدث الانفصال بين مملكة تونغكينغ Tongking الشمالية وعاصمتها هانوي تحت حكم عشيرة ترينه Trinh، والجزء الجنوبي في كوشينشينا وعاصمته هيو Hue تحت حكم عشيرة نغيون Nguyen المنافِسة. ومع أن الصين ظلت تعترف بأن سلالة لي Le هم الحكام الشرعيون لكامل المملكة، فقد تحولوا إلى دولة دُمية في أيدي دولة ترينه.

كانت التأثيرات التجارية أكثر وضوحاً في كوشينشينا، حيث أصبح ميناء هوي آن Hoi An (فايفو Faifo) واحداً من أكثر مراكز التجارة الدولية ازدحاماً بين العامين ١٥٧٠ و١٦٣٠، وبخاصة إبان العقد الثالث من القرن السابع عشر. وكان هذا الميناء المركز الرئيس لتبادل المنتجات اليابانية والصينية معاً (بسبب منع إمبراطورية مينغ للتجارة المباشرة مع اليابان)، وتبادل السلع اليابانية والصينية مع سلع جنوب شرق آسيا من كل الأنواع. ووجد نغوين هوانغ Nguyen Hoang، وهو أحد أكثر قادة عشيرته بصيرة، أن هذا الميناء كان من شأنه أن يوفر القاعدة الاقتصادية لدولة كوشينشينا الجديدة من خلال الضرائب على السفن الزائرة. وبالفعل مكّنت هذه العائدات نغوين

(٧٠) الشتني حيوانات ثديية ذات حافر غير مجترة تتميز عادة بجلدها الصفيق مثل الفيلة والخيول [المترجم].

(٧١) يقدم ليبرمان (Lieberman, 1980) وصفاً ممتازاً لدور كل من الأسلحة النارية والمرتزقة البرتغاليين في الفتوحات البورمية.

من شراء المدافع والأسلحة النارية الأخرى من البرتغاليين، ما ساعده في التغلب على دولة تونغكينغ الأكثر سكاناً التي كانت تحكمها عشيرة ترينه المنافِسة التي كانت على الرغم من دعم الهولنديين لها أقل اعتماداً على تجارة ما وراء البحار[١٢٧].

وبالتحول الآن إلى الجزر، نجد أن الحكم البرتغالي لمالاكا لم يكن مقبولاً كحكم شرعي من جانب إمبراطورية مينغ الصينية أو التجار المسلمين الذين كانوا يترددون على الميناء، فتفرقت تجارة مالاكا- كما رأينا- إلى عدد من المراكز الجديدة التي ظهرت نتيجة ذلك. كان من هذه المراكز ميناء بانتام الذي أعطاه موقعه في شمال غرب جاوة وصولاً إلى إمدادات الفلفل الوفيرة من جنوب شرق سومطرة وكذلك السيطرة على النقل البحري عبر مضيق سوندا. ولذلك تمكّن هذا الميناء من لعب دور مزدوج كمركز تجاري بين الشرق الأوسط والهند في الغرب وجزر التوابل والصين في الشرق، فضلاً عن دوره كمصدر رئيس للفلفل. وتدفقت على سلاطين بانتام عائدات كبيرة من شراء الفلفل بأسعار رخيصة من المناطق الداخلية وبيعه غالياً في الميناء، فضلاً عن فرض ضرائب على التجارة في الميناء. وقد مكّنتهم هذه العائدات من الاحتفاظ بقوات بحرية وبرية قوية ومن العمل في تجارة المسافات الطويلة لحساب أنفسهم في كل من المحيط الهندي وبحر الصين الجنوبي. وأدى وصول الهولنديين والإنجليز بعد العام ١٦٠٠ إلى زيادة الطلب على الفلفل والسلع الأخرى، ما عاد بالنفع يقيناً على بانتام، لكن شركة الهند الشرقية الهولندية على الرغم من عويلها وشكواها المتكررة من الممارسات الاحتكارية للسلطان، استخدمت قوتها البحرية في الحصار وغيرها من الوسائل لإعادة التوازن. وذهب كوين(٧٢) الراغب في تحويل التجارة إلى باتافيا بعيداً إلى حد الاستيلاء على السفن الصينية المبحرة من بانتام وإجبارها على إعادة بيع الفلفل بأسعار منخفضة واختطاف أطقمها للعمل في مزارع شركة الهند الشرقية الهولندية، حتى أمره مقر الشركة في أمستردام بالتوقف عن تلك الأفعال[١٢٨]. وكانت الأعمال العدائية بين بانتام والهولنديين متكررة، وشكلت أحياناً تهديداً لأمن باتافيا. وكان

(٧٢) تذكر أن كوين هو رئيس مجلس إدارة شركة الهند الشرقية الهولندية الذي قابلناه في مواضع سابقة من هذا الفصل [المترجم].

السلطان أبوالفتاح أغونغ Abulfatah Agung (١٦٥١-١٦٨٣) خصماً قوياً للشركة، لكن الهولنديين تمكنوا من التدخل في حرب أهلية اندلعت بين السلطان وابنه، واستولوا على بانتام وحوّلوها إلى كيان تابع لهم في العام ١٦٨٣، حين نصبوا الابن حاكماً دُمية عليها[١٢٩]. ومُنِع الأوروبيون الآخرون جميعاً من التجارة في بانتام، واضطرت شركة الهند الشرقية البريطانية لأن تنقل عملياتها إلى بنكولن Bencoolen على الساحل الغربي لسومطرة.

كان نظير بانتام على الطرف الشرقي للأرخبيل الإندونيسي هو ماكاسار على الطرف الجنوبي الغربي لجزيرة سولاويزي (سيليبيز). وكانت هذه الدولة كياناً مركباً نتج عن اندماج كيانين متمايزين معاً، مملكة زراعية محاربة، هي جوا Gowa، وإمارة تجارية بحرية صغيرة، هي تالو Tallo. وكانت المنطقة الداخلية تنتج فائضاً من الأرز كان يُبادَل بجوز الطيب والميس والقرنفل في مالاكا أو جزر التوابل. وكانت هذه السلع بدورها تُبادَل بالأقمشة والخزف والسلع المصنعة الأخرى القادمة من الصين والهند وغيرها من الأماكن. وكانت هذه التجارة في معظمها في أيدي تجار الملايو المسلمين الذين فروا شرقاً لتجنب الضغط البرتغالي، ولاحقاً الضغط الهولندي. وقد رحب بهم الحكام المحليون، ويبدو أنهم تمتعوا بحقوق "فوق إقليمية" لأشخاصهم وممتلكاتهم. وكانت هناك أيضاً تجارة واسعة في العبيد، وكان معظم الطلب يأتي من مزارع الفلفل في جاوة وسومطرة. وقد ساعد ماكاسار وقوعها في منتصف الطريق بين مضيق مالاكا وجزر التوابل في أن تكون محطة تجارية لسلع ثمينة مثل خشب الصندل من تيمور والذّبْل[٧٣] وغيرها من المنتجات البحرية الأخرى التي كان يجمعها شعب الأورانج لوت، كما رأينا في الفصل الثالث.

جذبت الفرص التجارية كلاً من التجار الأوروبيين والآسيويين الذين كانوا جميعاً موضع ترحيب على أساس واضح ومحترم من "عدم التمييز" من جانب الأهالي المتسامحين إلى أبعد الحدود. كانت الموازين والمقاييس موحدة، وكانت العملة الذهبية مستقرة. وحدث انصهار العالمين المكونين للدولة واضحاً تماماً إبان العقد الأخير من

(٧٣) الذّبَل هو عظم ظهر السلحفاة [المترجم].

القرن السادس عشر، حين أصبح ماتوايا Matoaya ملك تالو أيضاً المستشار أو رئيس الوزراء لابن أخيه ملك جوا. كان هذا الرجل الرائع الذي صوّر أنتوني ريد حياته وإنجازاته، وكذلك حياة وإنجازات ابنه بقدر كبير من التعاطف والبصيرة، كان مهندس العصر الذهبي لماكاسار في النصف الأول من القرن السابع عشر[١٣٠]. وحين ألح عليه كل من المسلمين والمسيحيين بالتخلي عن الأرواحية(٧٤) التقليدية السائدة بين شعبه والتحول إلى أحد "الدينين السماويين" لهذا الفريق أو ذاك، اختار ماتوايا نسخة متسامحة وانتقائية من الإسلام في العام ١٦٠٣، وبعد موته، حكم ابن أخيه السلطنة باسم السلطان علاء الدين. وتبعهم الناس فيما ذهبوا إليه، وإن كان ببعض التردد، لكن دون أي إكراه من جانب الحكام.

وفي مقابل هذه الأحداث، كانت شركة الهند الشرقية الهولندية- كما رأينا- تنفذ سياستها القائمة على الإبادة الجماعية في جزر الباندا وجزر الملوك، وتسعى لفرض احتكارها على كل تجارة جوز الطيب والميس والقرنفل. وكان المخرج الوحيد للتوابل "المهربة" هو ماكاسار التي ازدادت أهميتها بذلك بالنسبة للبرتغاليين وشركة الهند الشرقية البريطانية، وأيضاً للتجار الآسيويين. واعتبر الإنجليز مصنعهم في ماكاسار "أحد أفضل الزهور في حديقتنا"[١٣١]. وحين طالب الهولنديون ماكاسار بوقف كل التجارة مع جزر التوابل، رد السلطان علاء الدين ببيان رنان حول مبدأ الحرية البحرية Mare Liberum، ما كان لهوغو غورتيوس نفسه أن يصوغه بطريقة أفضل من تلك:

> لقد خلق الله الأرض والبحر، وقسم الأرض بين الناس، وأعطاهم البحر مشاعا بينهم. ولم نسمع فيما مضى أن أحداً حُرِم من الإبحار. وإذا أردتم أن تفعلوا ذلك، فإنكم بذلك تنتزعون الخبز من أفواه الناس.

أدت سياسة الباب المفتوح والتجارة الحرة إلى توافد التجار من كل مكان إلى ماكاسار، كذلك توافد البرتغاليون بأعداد متزايدة مع تصاعد التهديد الهولندي لمالاكا. وقد سمح الحكام المحليون، على الرغم من تمسكهم بالإسلام، بإنشاء كنائس مسيحية في ماكاسار، أصبحت مقاراً لأخويات رهبانية مختلفة حتى بعد سقوط مالاكا في يد

---

(٧٤) الأرواحية animism هي الاعتقاد بأن الروح أو النفس هي المبدأ الحيوي المنظّم للكون وأن لكل ما في الكون روحاً أو نفساً، حتى الكون ذاته [المترجم].

الهولنديين في العام ١٦٤١. ومات ماتوايا في العام ١٦٣٧، وخلفه السلطان علاء الدين، لكن الشراكة جددها في الجيل التالي باتينغالونغ ابن ماتوايا مستشارا ومحمد سعيد بن علاء الدين سلطاناً. وكان باتينغالونغ شخصية فذة بكل معنى الكلمة، فكان طليقاً في اللغة البرتغالية وملماً باللغة الفرنسية والإسبانية، إضافة إلى اللغتين العربية والملايوية. وكان شغوفاً جداً بالرياضيات والعلم والتقنية الغربيين. وبالنظر إلى العداء الهولندي لسلطنته، لا يفاجئنا حرصه على الحصول على أحدث الأسلحة وتقنيات التحصين من الإنجليز والبرتغاليين. ومع إضافة هذا التحديث لتجهيزاتهم إلى الروح المحاربة الأسطورية للماكاساريين، أصبحت "الديكة المقاتلة الشرقية"، كما كان الهولنديون يطلقون عليهم، عدواً مرهوباً جداً، حتى بالنسبة للقوى الأوروبية. لكن عزيمة شركة الهند الشرقية الهولندية كانت من النوع الذي لا يلين، وقررت أن الطريقة الوحيدة لإنجاز الاحتكار الذي تسعى وراءه منذ فترة طويلة لتجارة التوابل لن يتحقق دون إزالة ماكاسار كقوة مستقلة. ولذلك عقد الهولنديون تحالفاً مع أمير حرب بوغيزي يدعى آرونغ بالاكا Arung Palakka جاء إلى باتافيا مع أتباعه بعد ثورة فاشلة في سولاويزي. خدم بالاكا في جيش شركة الهند الشرقية الهولندية في جاوة، واكتسب خبرة كبيرة في استخدام الأسلحة النارية وصناعتها. ونجحت شركة الهند الشرقية الهولندية بمساعدة هذا الأمير في غزو ماكاسار في حملتين شرستين في العام ١٦٦٧ والعام ١٦٦٩، وخلعت السلطان وطردت كل منافسيها الأوروبيين. وعُيّن آرونغ بالاكا ملكاً في جنوب سولاويزي، حيث حكم حكماً مطلقاً حتى وفاته في العام ١٦٩٦. وبذلك تحقق أخيراً لشركة الهند الشرقية الهولندية احتكار تجارة التوابل في الأرخبيل الشرقي.

ثمة دولة تجارية أخرى قوية عسكرياً ظهرت في جنوب شرق آسيا في عصر التجارة، هي آتشيه الواقعة إلى الشمال من سومطرة. برزت قوة هذه الدولة مع دخول البرتغاليين إلى المضايق وفتحهم مالاكا. أسس السلطان علاء الدين رعاية شاه القهار Alauddin Riayat Shah al-Kahar (١٥٣٩-١٥٧١) آتشيه لتكون منافساً رئيساً لمالاكا في تجارة الفلفل، وكان يرسل خمس سفن كبيرة سنوياً على الأقل إلى البحر الأحمر

تحمل الكمية عينها التي كان البرتغاليون يرسلونها عن طريق رأس الرجاء الصالح[١٣٢]. وأقام أيضاً علاقات دبلوماسية مع الإمبراطورية العثمانية في العام ١٥٦٧، وحصل منها على معونة فنية في صب المعادن واستخدام المدفعية الثقيلة، وشكلت آتشيه تهديداً مستمراً لمالاكا. وسوق بندر آتشيه Bandar Acheh الذي عرفه العالم بعد إعصار تسونامي المرعب في العام ٢٠٠٤، شُيّد في الأصل حول قصر السلطان لسكنى التجار من جميع أنحاء العالم الإسلامي وعالم جنوب شرق آسيا. واقترب السلطان اسكندر مودا Iskander Muda (١٦٠٧-١٦٣٦) من إنجاز احتكار ملكي كامل لتجارة الفلفل، وطرد التجار البريطانيين والهولنديين. واستخدم عائداته التجارية لبناء ماكينة عسكرية هائلة جداً، تضمنت أسطولاً مكوناً من قوادس(٧٥) حربية ضخمة تحمل الواحدة منها ما بين ستمئة وثمانمئة رجل وعدة مدافع، وميدان مدفعية يضم مدافع عملاقة كثيرة وفرق فرسان وفيلة، وأعداداً كبيرة من المشاة المجندين.

شن اسكندر مودا حرباً ناجحة على جوهور وباهانغ Pahang وكيداه Kedah وبيراك Perak ودول ملايوية أخرى، وعزز سيطرته على الموانئ الأخرى في سومطرة. ونجح أيضاً في الحرب على البرتغاليين في عدد من الاشتباكات على البر والبحر. وكان هدفه الرئيس يتمثل في طرد البرتغاليين من مالاكا، وهاجمها في العام ١٦٢٩ بمئات السفن، بينهم سفينة قادس عملاقة اسمها "رعب الكون" كانت تحمل مئة مدفع قال ريد إنها أكبر سفينة خشبية بنيت على الإطلاق، وأكثر من عشرين ألف رجل[١٣٣]. حاصر السلطان المدينة لثلاثة أشهر من ناحية اليابسة، لكن أسطوله تعرض للأسر أو التدمير تماماً من جانب سرب إغاثة برتغالي مدعوم من حلفاء ملايويين من جوهور وباتاني Patani، وقُتِلت أغلب القوات المحاصِرة أو أُسِرت. وجاءت هزيمة البرتغاليين لآتشيه هدية للهولنديين الذين كان عليهم لولا هذه الهدية أن يقاتلوا هذا العدو الهائل بأنفسهم. ولذلك كان العام ١٦٢٩ نقطة التحول الحقيقية لهيمنة شركة الهند الشرقية الهولندية في جنوب شرق آسيا[١٣٤]، لأنه العام نفسه الذي هزموا فيه السلطان آغونغ سلطان ماتارام هزيمة

(٧٥) القوادس، ومفردها قادس، سفينة شراعية كبيرة ذات مجاديف [المترجم].

حاسمة. وبعد اثني عشر عاماً، انتزع الهولنديون مالاكا من البرتغاليين بمساعدة جوهور نفسها التي ساعدت من قبل في إنقاذها من اسكندر مودا، في درس صريح للسياسية الواقعية في جنوب شرق آسيا.

تميّز القرن الخامس عشر- كما رأينا في الفصل السابق- بالتوسع التجاري السريع في جنوب شرق آسيا. لكن ذلك كله تغير فجأة بفعل الاقتحام البرتغالي للمشهد وسقوط مالاكا في أيديهم في العام ١٥١١. يلاحظ ريد أن "الفترة التي تلت الاكتشاف الأوروبي للطريق البحري إلى آسيا في العام ١٤٩٨ ... كانت فترة سيئة جداً من الناحية الاقتصادية للأراضي الواقعة تحت الرياح" لأن البرتغاليين "شرعوا في إغراق أو نهب كل سفينة توابل تطالها أيديهم"[١٣٥]. فانخفض المتوسط المقدر السنوي لصادرات القرنفل وجوز الطيب والميس من أربعة وسبعين طناً وسبعة وثلاثين طناً وسبعة عشر طناً على التوالي في الأعوام الثلاثة ١٤٩٦-١٤٩٩ إلى ثمانية وثلاثين طناً وستة أطنان وطنين ونصف طن على التوالي في الأعوام الثلاثة ١٥٠٣-١٥٠٥، وهو الكساد الذي استمر، كما يذهب ريد، خلال العقود الثلاثة الأولى من القرن السادس عشر. وبعد ذلك حدث انتعاش لصادرات الفلفل والتوابل إلى البحر الأحمر على أيدي التجار الغوجاراتيين المبحرين من آتشيه. وبحلول العقد السابع من القرن السادس عشر كان النقل البحري عبر البحر الأحمر يتجاوز نظيره البرتغالي، على الرغم من أن الاثنين كانا يتوسعان من حيث الأرقام المطلقة، حيث تكشف عائدات الجمارك في مالاكا أن الصادرات البرتغالية الخاصة والحكومية تضاعفت من عشرة ملايين ريال[٧٦] سنوياً إبان العقد الخامس من القرن السادس عشر إلى عشرين مليون ريال إبان العقد التاسع من القرن السابع عشر[١٣٦]. يبيّن الجدول رقم (٤,٢) أنه بحلول نهاية القرن السادس عشر كان إجمالي واردات القرنفل الأوروبية نحو ثلاثة أضعاف ما كانت عليه إبان العقد الأخير من القرن الخامس عشر.

(٧٦) الريال real وحدة النقد الأساسية في إسبانيا والبرتغال في ذلك الوقت [المترجم].

الجدول رقم (٤,٢) .واردات القرنفل الأوروبية إبان الفترة ١٤٩٠–١٦٥٧ (متوسط الأطنان السنوية).

السنة	البرتغالية			الهولندية والإنجليزية	الطرق الإسلامية
	الرسمية	الخاصة	الإجمالي		
١٤٩٠ -١٤٩٩					٥٠
١٥٠٠ -١٥٠٩	١٢	٢	١٤		١٤
١٥١٠ -١٥١٩	١١	٤	١٥		٣
١٥٢٠ -١٥٢٩	٤٥	١٥	٦٠		٢
١٥٣٠ -١٥٣٩	٣٣	١١	٤٤		٦
١٥٤٠ -١٥٤٩	٤٥	١٥	٦٠		٥
١٥٥٠ -١٥٥٩	٤٠	١٥	٥٥		١٠
١٥٦٠ -١٥٦٩	٢٥	١٠	٣٥		٣٥
١٥٧٠ -١٥٧٩	٣٠	١٠	٤٠		٣٥
١٥٨٠ -١٥٨٩	١٠٠	٤٠	١٤٠		٣٠
١٥٩٠ -١٥٩٩	٨٠	٣٠	١١٠		٣٠
١٦٢٠ -١٦٢٢	٢	١	٣	٢٨٠	٢
١٦٣٨				٢٩٠	٠
١٦٥٣ -١٦٥٧	٠	٠	٠	١٧٤	٠

المصدر: Bulbeck et al. (1998, table 2.4, p. 32)

ونتيجة لاستيلاء إسبانيا على مانيلا في العام ١٥٧١ ودخول الشركتين الإنجليزية والهولندية إلى المشهد في أوائل العقد الأول من القرن السابع عشر، أصبحت الفترة ١٥٧٠–١٦٣٠ ذروة الازدهار في تجارة التوابل بجنوب شرق آسيا. وأدت المنافسة الحادة بين الدول التجارية الأوروبية الثلاث إلى خفض الأسعار نسبياً للمستهلكين الأوروبيين وبلوغ الذروة في مستويات الاستهلاك الأوروبية، إلى أكثر من مئتي طن من القرنفل ومئتي طن من جوز الطيب ومن سبعين إلى ثمانين طناً من الميس إبان العقد الثالث من القرن السابع عشر[١٣٧]. وأدى الاحتكار الناجح للعرض من جانب شركة الهند الشرقية الهولندية لجوز الطيب والميس فيما بعد إلى تقييد العرض، وبالتالي رفع الأسعار في أوروبا. ومع أن

شركة الهند الشرقية الهولندية كانت أقل نجاحاً في محاولتها لاحتكار عرض القرنفل، فقد تمكنت من تقييد العرض في المناطق التي كانت تسيطر عليها وتدمير أشجار القرنفل خارجها، ما أدى إلى مضاعفة السعر مرتين في أوروبا وثلاث مرات في الهند. وكما يبيّن الشكل رقم (٤,٢)، فقد ارتفعت واردات القرنفل الأوروبية بشدة بين العامين ١٥٨٠ و١٦٣٨، قبل أن تنخفض بشكل ملحوظ إبان العقد السادس من القرن السابع عشر. ومع أن الفلفل كان يجلب جزءاً صغيراً فحسب من سعر التوابل الفاخرة لجزر الملوك، فإن حجمه الأكبر كثيراً جعل منه السلعة التصديرية الرئيسة في عصر التجارة بجنوب شرق آسيا. وكما يبيّن الجدول رقم (٤,٣)، فإن إجمالي صادرات الفلفل السنوية من جنوب شرق آسيا تضاعف أربعة أضعاف تقريباً بين العقد الأول من القرن السادس عشر والعقد الأول من القرن السابع عشر، إذ تضاعفت الصادرات إلى الصين و"مناطق أخرى" (الهند واليابان والأمريكتين) تقريباً، وحدث انفجار في الصادرات إلى أوروبا والشرق الأوسط.

على أن القوة الدافعة وراء الازدهار لم تأت من الغرب بفعل الطلب الأوروبي وتدفق فضة العالم الجديد وحسب، وإنما أيضاً من الطلب القوي من الصين واليابان. فبعد العام ١٥٦٧، سمحت إمبراطورية مينغ بالتجارة المرخصة مع جنوب شرق آسيا، وارتفع حجم هذه التجارة من خمسين ينكاً كبيراً في العام إلى أكثر من مئة ينك بحلول العقد الأخير من القرن السادس عشر. وأصبح بمقدور اليابانيين أن يبادلوا فضتهم مع الحرير الصيني وجلود الأيل المنتجة محلياً والمنتجات الغابية الأخرى في موانئ جنوب شرق آسيا مثل مانيلا وأيوثايا وهوي آن في كوشينشينا، حيث كانت ثلاثمئة وخمس وخمسون سفينة "تحمل ختماً قرمزياً" تبحر هناك بين العامين ١٦٠٤ و١٦٣٥، حين توقفت فجأة بسبب تطبيق سياسة العزلة. استقبلت كوشينشينا سبعاً وثمانين من هذه السفن، واستقبلت مانيلا وأيوثايا نحو خمس وخمسين سفينة لكل منهما[١٣٨]. ودفع تخفيف القيود مزيداً من التجارة والهجرة الصينية إلى المنطقة، إلى أن أعيقت العملية بسبب سقوط إمبراطورية مينغ في منتصف القرن السابع عشر. ويرى وانج غونغو أن

"العقدين الفاصلين بين العقد الثالث من القرن السادس عشر وسقوط إمبراطورية مينغ في العام ١٦٤٤ تميّزا بقمة النشاط التجاري الصيني الحر في جنوب شرق آسيا قبل الأزمنة الحديثة"[١٣٩]. يقدم غونغو ثلاثة أسباب للنجاح الاستثنائي للتجار الصينيين الخاصين الذين ينتمون بالدرجة الأولى إلى جماعة الهوكين Hokkiens بمقاطعة فوجيان، خلال تلك الفترة: أولاً غياب السيطرة القوية للمركز بسبب الأزمات التي كانت تواجهها إمبراطورية مينغ، ثانياً انسحاب المنافسة اليابانية بسبب سياسة العزلة التي تبنتها شوغونية توكوغاوا في العام ١٦٣٥، ثالثاً النزاع بين الهولنديين ومنافسيهم الأيبيريين وهو ما ترك منفذاً للصينيين.

الجدول رقم (٤,٣).صادرات الفلفل من جنوب شرق آسيا إبان الفترة ١٥٠٠–١٦٥٩ (بالأطنان).

السنة	أوروبا والشرق الأوسط	الصين	الهند واليابان وأمريكا	الإجمالي
١٥٠٠- ١٥٠٩	٥٠	٥٠٠	٤٠٠	٩٥٠
١٥١٠- ١٥١٩	١٠٠	٥٠٠	٤٠٠	١٠٠٠
١٥٢٠- ١٥٢٩	٢٠٠	٥٠٠	٤٠٠	١١٠٠
١٥٣٠- ١٥٣٩	٣٠٠	٥٠٠	٥٠٠	١٣٠٠
١٥٤٠- ١٥٤٩	٦٠٠	٥٠٠	٦٠٠	١٧٠٠
١٥٥٠- ١٥٥٩	٧٠٠	٥٠٠	٧٠٠	١٩٠٠
١٥٦٠- ١٥٦٩	١٣٠٠	٧٠٠	٧٠٠	٢٧٠٠
١٥٧٠- ١٥٧٩	١٣٠٠	٩٠٠	٨٠٠	٣٠٠٠
١٥٨٠- ١٥٨٩	١٤٠٠	٩٠٠	٩٠٠	٣٢٠٠
١٥٩٠- ١٥٩٩	١٤٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠	٣٤٠٠
١٦٠٠- ١٦٠٩	٢٠٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠	٤٠٠٠
١٦١٠- ١٦١٩	١٥٠٠	١٠٠٠	١٠٠٠	٣٥٠٠
١٦٢٠- ١٦٢٩	١٥٠٠	١٢٠٠	١١٠٠	٣٨٠٠
١٦٣٠- ١٦٣٩	١٤٠٠	١٢٠٠	١٢٠٠	٣٨٠٠
١٦٤٠- ١٦٤٩	٢١٠٠	٤٠٠	١٣٠٠	٣٨٠٠
١٦٥٠- ١٦٥٩	٢٢٠٠	٤٠٠	١٤٠٠	٤٠٠٠

المصدر: Bulbeck et al. (1998, table 3.7, p. 86)

طريق رأس الرجاء الصالح والبندقية والشرق الأوسط

نتحول الآن إلى بعض النتائج الاقتصادية "لرحلات الاستكشاف" الأوروبية. لقد كان من أهداف المستكشفين الأيبيريين- كما رأينا- الإفلات من الوسطاء البنادقة والمسلمين الذين كانوا يسيطرون على الواردات الأوروبية من آسيا، وسرعان ما أدرك هؤلاء الوسطاء التهديد المحتمل الذي فرضه نجاح دا غاما على مصالحهم. فاستقبل السفير البندقي في القاهرة الأخبار بالقول إن فتح طريق رأس الرجاء الصالح سيكون "سبباً لخراب محقق للبندقية"[١٤٠]، وكتب جيرولامو بريولي Girolamo Priuli أن خسارة تجارة التوابل كانت بالنسبة للبندقية "بمثابة حرمان الرضيع من لبن الأم"[١٤١]. والقرون التي تلت تحول مركز الجاذبية الاقتصادية في أوروبا تدريجياً بعيداً عن البحر الأبيض المتوسط تكشف أن هؤلاء المراقبين كانوا محقين، وأن طريق رأس الرجاء الصالح وجهّ فعلاً ضربة قاتلة للحياة الاقتصادية في جنوب شرق أوروبا والشرق الأوسط، مع أن المؤرخين يؤكدون أن التقصي المدقق للقصة يكشف عن صورة أكثر تعقيداً من ذلك بكثير.

بعد أن فتح العثمانيون مصر في العام ١٥١٧، وجدوا أنفسهم أمام المشكلة نفسها التي واجهها المماليك من قبلهم، وهي ضمان استمرار تدفق التوابل والحرير الطبيعي من خلال البحر الأحمر أو البصرة التي استولى عليها العثمانيون في العام ١٥٤٦ وعدم تحوله جنوباً حول رأس الرجاء الصالح أو شمالاً إلى روسيا عن طريق الفولغا. ومع استقرار البرتغاليين في هرمز والعثمانيين في البصرة، أصبح الخليج العربي كله محل نزاع بينهما. ووقعت معارك عنيفة كثيرة بينهما في البر والبحر، لكن نتائجها غير الحاسمة تركت العثمانيين آمنين في سيطرتهم على البحر الأحمر، لكن دون سيطرة كاملة على الخليج العربي[١٤٢]. وحشدَ العثمانيون أسطولاً حربياً في السويس، كان القاعدة البحرية العثمانية الرئيسة في البحر الأحمر، واحتلوا عدن واليمن لحراسة مدخل البحر الأحمر من البرتغاليين. ونظراً لأن الاختراق البرتغالي للبحر الأحمر كان يشكل تهديداً للأماكن المقدسة في مكة المكرمة والمدينة، فقد كان السلطان العثماني ملزماً دينياً، فضلاً عن الأسباب الاقتصادية والسياسية، بمنع أية محاولة من هذا النوع.

وبعد صراعهم المرير غير الحاسم في الخليج العربي، وجد البرتغاليون والعثمانيون في النهاية أن التعاون مفيد لمصالح الطرفين[١٤٣]. فسمح البرتغاليون بمرور التوابل والنيلة والمنسوجات القطنية الهندية إلى البصرة، كما سمح العثمانيون بنقل الخيول العربية إلى الهند عبر هرمز. ونتيجة لذلك أصبحت التوابل متوفرة بكثرة في حلب وبورصة(٧٧)، وكذلك طرابلس وبيروت. وبذلك استعادت البندقية دورها في تجارة التوابل بحلول منتصف القرن وعلمت بعد ذلك على تعظيمه، وهو التعافي الرائع الذي يرجع بالدرجة الأولى إلى القوة العسكرية لحليفها المسلم المهول. لكن ذلك لم يمنع البنادقة والعثمانيون من قتال أحدهما الآخر في مناسبات كثيرة إبان القرن نفسه حول قضايا مثل قبرص وكريت.

لا شك في أنه لولا التدخل العثماني لنجحت المحاولة البرتغالية لاحتكار التوابل. وكما أوضحنا في موضع سابق، فقد ساعد ظهور آتشيه كمصدر للتوابل الإندونيسية وكذلك النقل التجاري الغوجاراتي النشط في إنعاش طريق البحر الأحمر ومعه ثروات البندقية والإمبراطورية العثمانية. وقد رأينا أن العثمانيين أرسلوا معونة فنية وعسكرية لسلطان آتشيه لمساعدته في تهديد مالاكا البرتغالية. وتمكن البرتغاليون من صد هجوم بحري عثماني في ميناء ديو في غوجارات في العام ١٥٣٨، لكنه أدخل الرعب في قلوبهم، مثلما فعل استيلاء العثمانيين على البصرة. وكان من حسن حظ البرتغاليين أن نزاعات أخرى في البحر الأبيض المتوسط حوّلت الموارد العثمانية بعيداً عن المحيط الهندي في ذلك الوقت الحرج. وضعف التحالف العسكري مع آتشيه جدياً بعد الهزيمة البحرية العثمانية في ليبانتو في العام ١٥٧١ ووفاة سلطان آتشيه بعد سنوات قليلة، لكن التوابل استمر تدفقها على البحر الأحمر.

ولذلك لم تتأثر البندقية في البداية باكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح[١٤٤]. لكن هل يعني رجوع طرق التجارة القديمة أن الاكتشاف البرتغالي لطريق رأس الرجاء

(٧٧) بورصة Bursa رابع أكبر مدن تركيا ومركز وعاصمة محافظة بورصة، تقع في شمال غرب البلاد بين مدينتي اسطنبول وأنقرة، كانت عاصمة لولاية عثمانية بين العامين ١٣٢٦ و ١٣٦٥، وظلت من المدن المهمة بالدولة العثمانية [المترجم].

الصالح لم يؤثر على أسواق التوابل الأوروبية إبان القرن السادس عشر؟ دفع لين Lane بأن طريق رأس الرجاء الصالح لم يزح البندقية، بل ولم يؤد حتى إلى انخفاض أسعار التوابل في أوروبا[١٤٥]. بل أدى إلى ارتفاع أسعار التوابل، ربما بسبب زيادة التكاليف التي فرضتها القرصنة البرتغالية في المحيط الهندي على التجار العاملين هناك (وهو ما قد يتفق مع الانخفاض في الواردات الأوروبية بعد العام ١٥٠٠ مباشرة). ويوضح أورورك ووليامسن أن هذه الحجة خاطئة لأنها تعتمد على الأسعار الاسمية للتوابل التي كانت ترتفع مع كل الأسعار الأوروبية الأخرى نتيجة- كما سنرى- لتدفق فضة العالم الجديد. فأسعار الفلفل الحقيقية (المعدلة ضد التضخم بأسعار الحبوب)- كما سنوضح- انخفضت بشدة عبر أوروبا إبان القرن السادس عشر (كما رأينا في الفصل السابق) بعد قرن كانت خلاله مرتفعة في أنحاء شمال أوروبا كافة[١٤٦]. كما انخفضت الأسعار الحقيقية للقرفة والقرنفل والزنجبيل والبخور والميس، فضلاً عن الفلفل. وعلى ذلك، فإن طريق رأس الرجاء الصالح ساعد فعلاً في دمج الأسواق الأوروبية والآسيوية، وربما أدى قتال البنادقة والعثمانيين من أجل العودة إلى تجارة التوابل في أواخر القرن السادس عشر إلى تقوية هذا الاندماج، لأنه عزز المنافسة وخفض هوامش الربح وقرّب الأسعار الأوروبية من المستوى الآسيوي[١٤٧].

كما يمكن الدفع بأن طريق رأس الرجاء الصالح ساعد أيضاً في زيادة اندماج الأسواق داخل أوروبا بإسقاط الاحتكارات القديمة وزيادة المنافسة. فإبان القرن الخامس عشر كان على التجار الألمان الراغبين في شراء السلع الآسيوية من البندقية أن يحصلوا عليها من البندقية نفسها وفيها كانوا يضطرون للإقامة في فندق الألمان Fondaco dei Tedescht ويمارسون البيع والشراء تحت إشراف الحكومة البندقية. أما بداية من العام ١٥٠١، فقد شرع البرتغاليون في تصريف فلفل "المحيط الأطلسي" في أنتويرب. فحوّل آل فوغر Fuggers وغيرهم من الأسر التجارية الألمانية البارزة طلباتهم من البندقية إلى أنتويرب، وأصبحت ليونز Lyons مركز توزيع ثانوي، ويذكر كريستوف غالمان Kristof Glamann أن أسعار الفلفل في أنتويرب انخفضت إلى أدنى مستوياتها إبان العقد الثاني من القرن السادس عشر[١٤٨]. فقد أدار البرتغاليون سوق الفلفل في البداية

كاحتكار ملكي، حيث كانت الإمدادات السنوية تباع "بالجملة أو بكميات ضخمة لحساب الملك"[١٤٩]، لكنهم في العام ١٥٧٧ أعادوا تنظيم سياستهم، وسُمِح للمقاولين الخاصين بالمشاركة في السوق. وحاول التاجر الأوغسبرغي كونراد روت Konrad Rot أن يشكل اتحاداً يضم حكام سكسونيا والدنمرك وغيرهم للمزايدة على هذه الحقوق، وبالتالي احتكار سوق الفلفل البرتغالي كاملاً، لكنه لم يستطع أن يجمع الأموال اللازمة لإنجاز هذا المخطط الطموح. وثمة مشروع آخر أكثر طموحاً للاحتكار المشترك للإمدادات البرتغالية والبندقية كان يثيره الطرفان في مناسبات منفصلة، لكنه لم يثمر أبداً، فكان "حلماً لم يتحقق مطلقاً، لكنه استمر خلال القرن السادس عشر"[١٥٠]. وتمثلت النتيجة النهائية في استمرار المنافسة أشد حتى مما كانت عليه قبل رحلات داغاما.

لم تأت كلمة النهاية للأهمية التقليدية للبندقية في تجارة التوابل على أيدي البرتغاليين، بل الهولنديين والإنجليز. فمع حلول العقد الثالث من القرن السادس عشر، حلت أمستردام، وبعدها لندن، محل أنتويرب باعتبارها المصدر الرئيس للفلفل إلى أوروبا الغربية. ويذكر ويك Wake أن "مستوى جديداً للأسعار أصبح يحكم الأسواق الأوروبية. فبالنظر إلى أسعار الفضة، كانت هذه الأسعار أدنى بنحو ٣٠ أو ٤٠٪ من أسعار الاستيراد التي حافظ عليها البرتغاليون إبان القرن السابق[١٥١]. وكان هذا الانخفاض في الأسعار كافياً للقضاء على التجارة المشرقية من جانب البنادقة وغيرهم من مستوْردي البحر الأبيض المتوسط". وكانت المنافسة بين شركة الهند الشرقية الهولندية وشركة الهند الشرقية الإنجليزية على الفلفل العامل الرئيس وراء خفض الأسعار ورفع الاستهلاك في الأسواق الأوروبية. فكانت الشركتان الهولندية والإنجليزية متورطتّين في لعبة تنافسية غير صفرية(٧٨)، حيث كانت الواحدة منهما تحاول أن تزيد حصتها من السوق على حساب الأخرى بزيادة العرض. وكما أوضح

(٧٨) في نظرية اللعب والنظرية الاقتصادية، تشير اللعبة غير الصفرية non-zero-game أو المجموع غير الصفري non-zero-sum إلى الموقف الذي تُراكِم فيه الأطراف المتفاعلة مكاسبٍ أو خسائر أكبر من الصفر أو أصغر منه، بمعنى أن الزيادة التي يحققها طرف لا تعني بالضرورة نقصاً موازِناً عند الأطراف الأخرى، وهنا قد تكون العملية تنافسية أو غير تنافسية [المترجم].

دوغلاس إروين Douglas Irwin، فإن شركة الهند الشرقية الهولندية فعلت ذلك بسبب آلياتها التحفيزية التي قادت صناع القرار فيها إلى تعظيم العائد وليس الأرباح، وهو ما يشير ضمناً إلى أنهم كانوا مستعدين لتوفير كميات أكبر من نظرائهم البريطانيين[١٥٢]. وفي أثناء ذلك، أسهم الجانبان كلاهما في خفض أسعار الفلفل إلى أقل من ستين فلورينا لكل مئة رطل هولندي بحلول العقد السادس من القرن السابع عشر[١٥٣]، ولم ترتفع الأسعار كثيراً فوق هذا المستوى إلا نادراً على مدار بقية القرن وما بعده. وعلى الرغم من المنافسة الإنجليزية الهولندية، يذهب ويك إلى أن البرتغاليين، على خلاف البنادقة وموردي البحر الأبيض المتوسط الآخرين، واصلوا العمل بنشاط في تجارة الفلفل، وبدرجة أكبر في تجارة التوابل الفاخرة. وأسهم ذلك أيضاً بالطبع في زيادة الضغوط التنافسية في هذه الأسواق.

ثمة دعم غير مباشر لمقولة المنافسة يأتي من الأدلة المتعلقة بالتوابل الفاخرة، وبالأخص القرنفل وجوز الطيب والميس التي كانت المنافسة فيها أقل حدة. فعلى خلاف حالة الفلفل، التي كانت مصادر التوريد فيها متنوعة جداً لدرجة أن المشترين من المنبع كانوا مضطرين لدفع أسعار تنافسية- كما رأينا- كانت شركة الهند الشرقية الهولندية تتمتع باحتكار الطلب(٧٩) في جزر الملوك التي كانت تنتج جوز الطيب والميس. والصورة المنبثقة عن تلخيص غالمان لهذه السياسة هي تباعد الأسعار بين الأسواق الآسيوية والأوروبية من خلال تعظيم الأرباح، أو كما يقول "من خلال السيطرة على الجزر، كانت الشركة تستطيع أن تثبّت تعسفياً سعراً منخفضاً للتسليم، وتزيد بذلك الأرباح من التوابل إلى مستويات خيالية، وصلت في أحيان كثيرة إلى أكثر من ١٠٠٠٪"[١٥٤].

يبيّن الشكل رقم (٤.٦) التأثيرات المتطرفة لسياسة احتكار الطلب. فإبان العقد التاسع من القرن السادس عشر، حين كانت التوابل الآسيوية لا تزال تصل أمستردام عن طريق البرتغاليين (أو عبر الطرق البرية المشرقية التقليدية)، كانت أسعار القرنفل في

(٧٩) احتكار الطلب monopsony هو حالة السوق التي يوجد فيه مشتري أو مستهلك واحد للمنتج، يكون بالتالي قادراً على التأثير في سعره (Oxford English Dictionary)

أمستردام أعلى بستة أضعاف ونصف منها في جنوب شرق آسيا. وكان هامش الربح زهاء تسعة إبان العقد الأول من القرن السابع عشر، بعد إنشاء شركة الهند الشرقية الهولندية مباشرة، لكنه تراجع في عقود لاحقة إلى ما بين اثنين وخمسة. ثم جاءت السيطرة الكاملة على مصادر التوريد لترفع أرباح الشركة فوراً، فارتفع هامش السعر إلى تسعة ونصف إبان العقد السادس من القرن السابع عشر، وإلى خمسة وعشرين إبان العقد السابع من القرن نفسه وهو رقم استثنائي، قبل أن يتراجع إلى مستوى متوازن عند نحو أربعة عشر أو خمسة عشر الذي استمر دون تغيير تقريباً حتى العقد الثامن من القرن الثامن عشر. والمقارنة مع الفلفل مذهلة، فهوامش أسعار الفلفل ظلت بين ثلاثة وأربعة حتى القرن التاسع عشر، باستثناء ارتفاعات عرضية في أوقات الحروب. وكانت هذه الهوامش هي نفسها تقريباً هوامش القرنفل بعد تأسيس شركة الهند الشرقية الهولندية كمنافس جدي على التجارة الآسيوية، لكن قبل أن تنجح في السيطرة على إمدادات القرنفل في منبعها (أي إبان الفترة الممتدة من العقد الثاني إلى العقد الخامس من القرن السابع عشر). وتظهر أهمية بنية السوق جلية في هذه البيانات.

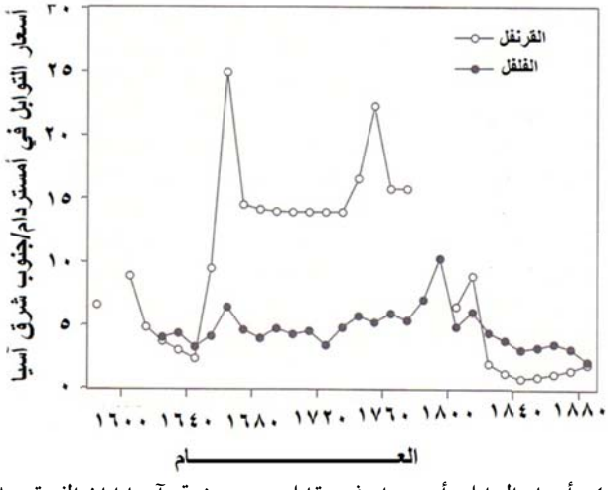

الشكل رقم (٤,٦).أسعار التوابل: أمستردام في مقابل جنوب شرق آسيا إبان الفترة ١٥٨٠–١٨٩٠.

المصدر: Bulbeck et al. (1998)

ثمة حلقة وصل اقتصادية مهمة أخرى بين البندقية والإمبراطورية العثمانية تمثلت في بيع الأقمشة الصوفية البندقية عالية النوعية للإمبراطورية. وفي أثناء القرن السابع عشر، حل الهولنديون والإنجليز- هنا أيضاً- محل البنادقة وغيرهم من المنتجين الإيطاليين في الأسواق المشرقية لهذه السلع المصنعة الأساسية. يفسر تشارلز ويلسون Charles Wilson ذلك بإحكام بليغ بالقول إن "الأتراك كانوا يريدون أقمشة خفيفة رخيصة، فيما كان البنادقة يوردون أقمشة ثقيلة غالية"[١٥٥]. فقد كانت البندقية مقيّدة بتعليمات النقابات الحرفية التي أصرت على الحفاظ على نوعية عالية وسعر باهظ. فيما كان الشماليون يخفّضون النوعية والسعر ويلجؤون إلى وسائل مجردة من الأخلاق مثل التهريب والتزييف بوضع علامات بندقية على منتجاتهم الأرخص، وهي ممارسات لا تزال مألوفة إلى اليوم[١٥٦]. ولذلك يذهب راب Rapp إلى أن "غزو البحر الأبيض المتوسط، وليس استغلال المحيط الأطلسي، هو الذي أنتج العصور الذهبية لأمستردام ولندن"[١٥٧]، بينما يرجع نجاح الإنجليز إلى "نوع من الثورة في التسويق" وفرت للمستهلكين المشرقيين ما كان يبدو أقمشة صوفية فاخرة، لكنها كانت أرخص كثيراً نتيجة للنوعية الرديئة والمواد الخام الرديئة.

تتمثل الخلفية السياسية والدبلوماسية "لغزو" القوى الشمالية للتجارة والملاحة في شرق البحر الأبيض المتوسط في العداوة المشتركة التي جمعتهم مع العثمانيين ضد القوة الكاثوليكية الكبرى ممثلة في إسبانيا الهابسبورغية المتحالفة مع البابوية. وقد كان العثمانيون بعد هزيمتهم في ليبانتو في العام ١٥٧١ متلهفين لدعم الإنجليز والهولنديين البروتستانت، وهو ما تيسر بكون فيليب الثاني الإسباني عدواً مشتركاً لهاتين القوتين البحريتين العظميين. وقد مَنَحَ العثمانيون للإنجليز اتفاقية تجارية أو "امتيازات تجارية" في العام ١٥٨٠، أعطتهم الحق في حرية التجارة في الموانئ العثمانية في مقابل دفع ٣٪ فقط كرسوم جمركية بدلاً من نسبة الـ٥٪ المعتادة التي كان البنادقة والفرنسيون يدفعونها. وكوّن مجموعة من "التجار البربر" الإنجليز شركة المشرق(٨٠) التي وفرت الإطار الذي

(٨٠) التجار البربر Barbary Merchants هم تجار الشركة البربرية أو شركة المغرب الإنجليزية التي تأسست في العام ١٥٨٥ لاحتكار التجارة مع شمال أفريقيا، وسبقتها إلى الوجود شركة المشرق Levant Company

صدّرت إنجلترا من خلاله أقمشتها الصوفية إلى الأسواق العثمانية وإلى الشرق من الإمبراطورية العثمانية، في مقابل واردات الحرير الطبيعي والنبيذ والزبيب. وتضمنت الصادرات الإنجليزية الأساسية الأخرى مواد الحرب مثل القصدير والرصاص والفولاذ، فضلاً عن الأسلحة. وإضافة إلى حرمان البندقية من سوق الأقمشة الصوفية عالية النوعية، حل الإنجليز محلها أيضاً في تجارة الشحن بالبحر الأبيض المتوسط للإمبراطورية العثمانية. وحدث الدخول الهولندي إلى تجارة المشرق على المنوال الإنجليزي، وإن وصلوا متأخرين، حيث حصلوا على امتيازاتهم في العام ١٦١٢، وكان تركيب صادراتهم وواردتهم مماثلاً أيضاً لنظيره الإنجليزي. ويذكر إزرائيل أن التجارة الهولندية في البحر الأبيض المتوسط شهدت تراجعاً شديداً بعد استئناف الأعمال العدائية مع إسبانيا في العام ١٦٢١، لكنها انتعشت في النهاية وازدهرت بعد نهاية الحرب في العام ١٦٤٨[١٥٨].

قدم بوب ألين Bob Allen مؤخراً أدلة من القياس الاقتصادي تقترح أن خسارة البندقية كانت في حقيقتها لصالح إنجلترا، وأن نمو الإنتاجية في "هذه الأقمشة الجديدة" كان عاملاً رئيساً في النجاح الاقتصادي الإنجليزي في تلك الفترة من العصر الحديث المبكر[١٥٩]، إذ "قدمت دفعة قوية للتحول الحضري ونمو الصناعة الريفية. ومن خلال هذه التأثيرات، كان نجاح الأقمشة الجديدة مسؤولاً عن نسبة كبيرة من النمو في إنتاجية العوامل الإجمالية في الزراعة، حيث تجاوب المزارعون بنجاح مع الطلب الأعلى على الغذاء والصوف والعمل. ولولا هذا النجاح إبان القرن السابع عشر، لكانت الأجور والإنتاجية الزراعية وحجم المدن والحضر أدنى مما وصلت إليه في العام ١٨٠٠"[١٦٠][(٨١)].

كان الحرير هو القطاع الصناعي الرئيس في الاقتصاد العثماني. وقد ظلت مدينة بورصة الواقعة إلى جنوب بحر مرمرة لفترة طويلة مركز تصنيع الأنسجة الحريرية

أو شركة تركيا التي تأسست في العام ١٥٨١ لاحتكار التجارة مع المشرق وما وراءه التي كان تجارها يعرفون باسم تجار تركيا Turkey Merchants [المترجم].

(٨١) تُعرِّف الموسوعة البريطانية القياس الاقتصادي econometrics بأنه "التحليل الإحصائي والرياضي للعلاقات الاقتصادية". وتشير إنتاجية العوامل الإجمالية Total Factor Productivity إلى مقياس لمستوى التقنية في قطاع معين أو بلد محدد.

والسوق الذي يحدث فيه تبادل السلع المصنعة الغربية من كل الأنواع، وبخاصة الأقمشة الصوفية، مع الحرير الطبيعي الفارسي، وكذلك التوابل وغيرها من السلع الهندية الأخرى. ويذكر إنالجك Inalcik أن بورصة كانت تضم زهاء ألف من أنوال الحرير نحو العام ١٥٠٠، كانت تنسج زهاء ستة وثلاثين طناً من الحرير الطبيعي سنوياً، فيما كانت ست قوافل سنوياً على الأقل تجلب مئة وعشرين طناً من الحرير الطبيعي من الشرق. معنى ذلك أن نحو ثلثي الحرير الطبيعي الذي يصل إلى بورصة كان يتجه إلى أوروبا[١٦١]. وكان الاعتماد "العمودي" بين الاقتصادين الصفوي والعثماني الناتج عن تجارة الحرير يشكل إغراءً للطرفين لشن حرب اقتصادية على الآخر بإعلان حظر الاستيراد أو التصدير. فتسبب السلطان سليم الأول العابس في الخراب في ممالكه وفي إيطاليا بحظر الاستيراد الذي رفعه ابنه سليمان في النهاية حين وصل إلى السلطة في العام ١٥٢٠. وعلى الطرف الآخر، فرض الشاه عباس الأكبر احتكاراً للتصدير، على أمل تحويل الإمدادات بعيداً عن الطرق البرية ونحو رأس الرجاء الصالح، لكنه فشل كما حدث مع سليم، وأعاد خليفته وحفيده الشاه صفي فتح التجارة في العام ١٦٢٩.

كانت بورصة تخدم الطرق التجارية الشمالية-الجنوبية المهمة وكذلك الطرق الشرقية - الغربية. فكانت السلع الشرقية تنقل براً من بورصة إلى براشوف Brasov على الحدود بين والاشيا وترانسلفانيا، ومن مينائي أكيرمان Akkerman وكيليا Kilia على الشاطئ الشمالي للبحر الأسود إلى لفيف Lwow في شرق بولندا على أيدي تجار عثمانيين وبلقانيين، ومنها كانت تنقل إلى شمال أوروبا. ومن الواضح أن الأقمشة الحريرية المطرزة القادمة من بورصة كانت اللباس المفضل للنخب البولندية وحتى السويدية في تلك الأزمان. وفي المقابل كانت الأقمشة الصوفية والأدوات المعدنية والصناعات الأوروبية الأخرى تُنقَل في الاتجاه المعاكس. وعلى الرغم من هذه الروابط التجارية، كانت بولندا والعثمانيون يتنافسون بشدة على السيطرة على المنطقة بين نهر الدنيبر ونهر الدنيستر Dniester، وكان الحكام المسيحيون لمولدافيا واقعين فريسة بين القوتين العظميين.

ظل المركز التجاري الجنوي القديم بمدينة كافا على أهميته تحت الحكم العثماني، حيث كان حلقة الربط بين اسطنبول والقوة المتنامية لموسكو التي كانت المصدر الرئيس للفراء الذي كان عليه طلب قوي في البلاط العثماني. وكان البحر الأسود في تلك الفترة بحيرة عثمانية بكل معنى الكلمة، أكثر بكثير مما كان في عهد بيزنطة، وذلك لأن العثمانيين لم يسمحوا للجنويين أو القوى الأخرى بتحصين مستوطناتهم التجارية. وكان تموين اسطنبول يتطلب صادرات الحبوب والسمك والماشية بوفرة من القرم، فضلاً عن الأهمية الكبيرة لتجارة العبيد. وقد وجدت القبائل البدوية بسهول القرم في غارات صيد العبيد على السكان المستقرين في بولندا وروسيا والمنطقة الشركسية مكملاً مربحاً لتربية الماشية، حتى أن إنالجك يقول إنها أصبحت الركيزة الأساسية لاقتصادهم، فكانوا يصدّرون عشرة آلاف عبد سنوياً على الأقل إبان الفترة ١٥٠٠- ١٦٥٠[١٦٢]. وكانت الصادرات الأناضولية التي توازن هذه الواردات تتضمن المنتجات الأولية مثل النبيذ والبندق والفاكهة، وكانت المنسوجات القطنية الخشنة المنتجة محلياً مادة تصديرية رئيسة أخرى، ما يكشف عن تكامل الشاطئين الشمالي والجنوبي للبحر الأسود. وعلى الرغم من هذه النشاطات الكثيرة وغيرها، ظلت إعادة تصدير التوابل الهندية، وبخاصة الفلفل، الركيزة الأساسية للتجارة. فيلاحظ إنالجك أن "الظروف الجغرافية والإحوال الاقتصادية، وبخاصة تكاليف النقل، أنتجت منطقة منفصلة للتوابل على خط شرق فيينا وإيطاليا"[١٦٣]. وهكذا، ففي حين كان طريق رأس الرجاء الصالح يلبي احتياجات أوروبا الغربية، ظلت منطقة واسعة في أوروبا الشرقية والوسطى ودول البلقان والمقاطعات العثمانية تلبي احتياجاتها من خلال التجارة المشرقية.

أظهر العالم الإسلامي مرة أخرى في هذه الأزمان، كما في عصره الذهبي، درجة عالية من حركية العوامل الدولية ضمن الإطار الثقافي المشترك للقانون والدين الإسلاميين. فكان الشعراء الفارسيون يمتدحون السلاطين، ليس داخل الدولة الصفوية وحسب، بل أيضاً السلاطين المغول العظماء[١٦٤]. وكان التجار الأتراك يمتلكون مستعمرات في سومطرة البعيدة وفي موانئ غوجارات، فيما كان التجار والمصرفيون

الهنود متواجدين في إيران وتركيا وحتى في روسيا. وكان المرتزقة والخبراء العسكريون العثمانيون يتنقّلون في جميع أنحاء العالم الإسلامي، ينشرون معرفتهم بالأسلحة النارية وطرق استخدامها. كما أُثْرِيْت العمارة والرسم والخزف والفنون الزخرفية جميعها بفضل الاتصال بين الثقافات، ليس ضمن العالم الإسلامي وحسب، بل أيضاً عبر خطوط الفصل الدينية الكبرى.

الفضة والحرير والتوابل

إذا كان سحر تجارة التوابل إحدى القوى الدافعة الأساسية التي أدت إلى الاندماج الدولي إبان القرنين السادس عشر والسابع عشر، فقد كان طوفان الفضة الذي تدفق حول العالم بفضل مناجم العالم الجديد شريان الحياة "للجهاز الدوري" للاقتصاد العالمي كما أسماه فيرناند بروديل[١٦٥]، "حيث كان التدفق الثابت للعملات الذهبية والفضية، من كل شكل، ينتقل من الغرب إلى الشرق متبعاً دوران الأرض، حاملاً معه الكثير من السلع كنوع من العملة المكملة، ومطلقاً في الاتجاه المعاكس تدفقاً ثرياً ومتنوعاً من السلع المختلفة والسلع الثمينة من الشرق إلى الغرب". ضمت هذه السلسلة الفضية التي طوقت الكرة الأرضية حلقات فردية كثيرة، يستحق كل منها منفرداً وقفة تأمل.

ابتداءً من أوروبا الغربية وتجارة البلطيق، كان هناك عجز دائم في تبادل النبيذ والأقمشة والمصنوعات الغربية الأخرى في مقابل واردات المنتجات الأولية الشرقية مثل الحبوب والخشب والفراء، وهو العجز الذي تغلبت عليه الفضة الآتية من الأمريكتين. لكن هذه الفضة بدورها بدأت تُستنزَف لصالح الشرق في مقابل الحرير الفارسي وغيرها من المنتجات الفاخرة من الشرق الأوسط. وأدت تجارة المشرق الأوروبية عبر البحر الأبيض المتوسط أيضاً إلى تدفق الفضة لشراء التوابل الشرقية عبر البحر الأحمر والخليج العربي. وأخيراً، أدى طريق رأس الرجاء الصالح الذي دشنّه البرتغاليون، لكن استخدمته بعد ذلك كل الأمم التجارية الأوروبية، إلى تدفق آخر للفضة في مقابل التوابل والحرير والمنسوجات القطنية. وكانت الفضة الأمريكية تصل إلى آسيا أيضاً

بطريقة مباشرة عبر مانيلا التي كانت – كما رأينا – مسرحاً لتبادل الحرير والسلع الصينية الفاخرة الأخرى، فيما كانت اليابان مصدراً رئيساً آخَر للفضة التي جرى تبادلها أيضاً مع الحرير الصيني بالدرجة الأولى عبر وساطة التجار الأوروبيين.

ما مقادير الفضة المتضمنة في هذه التدفقات؟ ليس غريباً أن يثار جدل كبير حول الأحجام المطلقة أو حتى النسبية للتدفقات المختلفة، لكن الدراسات الأخيرة تساعدنا في توضيح عدة قضايا رئيسة. نركز– أولاً– على ما كان – بلا شك – التدفق الأكبر للفضة في العصر الحديث المبكر، أي التدفق بين الأمريكتين وأوروبا. يقدم باريت أرقاماً للإنتاج الأمريكي للفضة بين سبعة عشر ألف طن إبان القرن السادس عشر، وأربعة وثلاثين ألف طن إبان القرن السابع عشر، وواحد وخمسين ألف طن إبان القرن الثامن عشر[١٦٦]. ومن بين هذا الإجمالي، كان نحو ٨٥٪ يُنقَل إلى أوروبا في الثلاثة أرباع الأولى من القرن السادس عشر، لكن هذه الحصة انخفضت إلى ما بين ٧٠٪ و٧٥٪ بين العام ١٥٧٦ والعام ١٧٧٥. وعلى ذلك، فإن متوسط الاستيراد السنوي إلى أوروبا من الأمريكتين بلغ مئتين وخمسة أطنان من الفضة ومكافئها إبان الفترة ١٥٥١–١٦٠٠، ومئتين وخمسة وأربعين طناً إبان الفترة ١٦٠١–١٦٢٥، ومئتين وتسعين طناً إبان الفترة ١٦٢٦–١٦٥٠.

ومن بين هذه الكميات، تقدّر بيانات باريت أن مئة طن ومئة وخمسة وعشرين طناً كان يعاد تصديرها من أوروبا إبان الفترة ١٦٠١–١٦٢٥ والفترة ١٦٢٦–١٦٥٠ على التوالي، فيما كان مئة وخمسة وأربعون طناً ومئة وخمسة وستون طناً، أي ٥٩٪ و٥٧٪ يُحتفَظ بها داخل أوروبا إبان الفترتين. تعتمد بيانات باريت للصادرات الأوروبية بالدرجة الأولى على عمل أرتر أتمان Artur Attman، وهي الأرقام التي انتقدها بيرسون Pearson لكونها تقلل حجم إعادة التصدير الأوروبي وبالتالي تزيد ما كان يُحتفَظ به من الفضة الأمريكية داخل أوروبا[١٦٧]. ويشير بيرسون إلى أن أتمان نفسه وصف أرقامه للصادرات الأوروبية بأنها "محافظة جداً". وفي المقابل، فحتى مع قبول هذه التحيزات يظل من الصعب تقبل الادعاء بأن دور أوروبا اقتصر على دور الوسيط في تجارة الفضة العالمية، باستيرادها من أمريكا وإعادة تصديرها كلها. فالطلب

الأوروبي على الفضة ولو فقط لتوفير السيولة اللازمة لمواكبة نموها الاقتصادي الذي لم يكن تافها في تلك الفترة، يبدو أنه كان مهما في ذاته.

لكن أوروبا لم تكن "البالوعة" الوحيدة للفضة في تلك الفترة التي كثيراً ما يتم إغفالها. فالشكل رقم (٤.٤) يوضح فجوة متنامية بين إنتاج الفضة بالعالم الجديد وصادرات الفضة بعد منتصف القرن السادس عشر، ما يكشف أن كميات متزايدة من الفضة كانت تستخدم أيضاً لدعم الاقتصادات الأمريكية المتنامية. وبالتزامن مع ذلك، حدثت زيادة في انتقالات الفضة بين المناطق ضمن الإمبراطورية الإسبانية، تتناقض جميعها، كما يشير غريف وإيريغوين Grafe and Irigoin، مع صورة الدولة الإسبانية الاستبدادية اللصوصية التي تستنزف الموارد من مستعمراتها بلا رحمة[١٦٨].

فقد بلغ التدفق من أمريكا إلى الفلبين نحو سبعة عشر طناً سنوياً في النصف الأول من القرن السابع عشر، إذا صدقنا أرقام تيباسك TePaske، أو ثمانية وثلاثين طناً سنوياً وفقاً لأرقام فون جيلان von Jlahn، أو حتى خمسين طناً سنوياً وفقاً لأرقام فلين وجيرالديز[١٦٩]. وكانت اليابان – كما رأينا – مصدراً رئيساً آخر للفضة، حيث كانت منتجاً أساسياً لها في تلك الفترة، وبخاصة في السنوات من العام ١٥٦٠ إلى العام ١٦٤٠. وأدى التجديد التقني القادم من كوريا المسمى عملية "نفخ الرماد" لفصل الفضة عن الرصاص بعد الصهر إلى زيادة الإنتاج بشدة في المناجم الواقعة في مقاطعة إيوامي الغربية اليابانية، إذ جرى تبني هذا التجديد على نطاق واسع كما يذكر ياماموراوكاميكي Yamamura and Kamiki[١٧٠]. ومن اللافت للنظر أنهما يذكران أن عملية ملغم الزئبق المستخدمة في بوتوسي كانت معروفة لليابانيين نتيجة للاتصال مع المبشرين الإسبان، لكنهم لم يستخدموها لعدم توفر الزئبق محلياً.

تبيّن المجموعة (أ) بالجدول رقم (٤.٤) أرقام فون جيلان لواردات الفضة الصينية في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر (محوّلة إلى المتوسطات

السنوية)، وكذلك التقديرات السابقة لياماورا وكاميكي. يميّز الجدول بين ثلاثة مصادر للتوريد، هي اليابان والعالم الجديد (عن طريق الفلبين) وأوروبا (عن طريق الهند). وكما يتضح في الجدول، فإن الفرق الكبير بين مجموعتي التقديرات يكمن في الدور النسبي للتوريد الياباني إبان الفترة ١٦٠٠-١٦٤٥، حيث تشير تقديرات ياماورا وكاميكي إلى أن معظم الواردات الصينية كانت تأتي من اليابان في النصف الأول من القرن السابع عشر. ويقول بيرسون إننا لو قبلنا هذه الأرقام، فإن صادرات الفضة اليابانية إلى الصين على مدى السنوات الثمانين من العام ١٥٦٠ إلى العام ١٦٤٠ تشكل ٣٦٪ من إنتاج العالم الجديد، وهي نسبة عالية جداً[١٧١]. ونحن لذلك نميل إلى تأييد تقديرات فون جيلان، كما يفعل مؤرخون آخرون مثل دي فريز[١٧٢]. وذلك يوضح أن اليابان وفرت نحو نصف الواردات الصينية بين العامين ١٥٥٠ و١٦٤٥، وهي النسبة التي اقتربت من ٦٠٪ في أواخر القرن السادس عشر. وكان العالم الجديد يوفر ما بين ربع وثلث احتياجات الصين من الفضة، وكان السُدس تقريباً يأتي من أوروبا عبر الهند، على فرض أن نحو نصف الفضة التي كانت تصدّر من أوروبا إلى الهند كانت تنتقل في النهاية إلى الصين[١٧٣]. وإبان الفترة ١٦٠٠-١٦٤٥، وهي السنوات الأخيرة لإمبراطورية مينغ قبل أن يسقطها المانشو(٨٢)، يقدّر فون جيلان واردات الفضة الصينية السنوية بنحو مئة وأحد عشر طناً، أي أكثر من ضعفها إبان الفترة السابقة. وبأخذ الفترتين معاً، نجد أن الصين استوردت سبعة آلاف وثلاثمئة طن من الفضة من كل المصادر، وهو رقم هائل فعلاً.

(٨٢) المانشو Manchus شعب تانكوتي ترجع أصوله إلى منشوريا، يُعرَف أيضاً باسم المانشو ذوي الشُرّابات الحمراء، يتواجدون حالياً بالدرجة الأولى في الصين التي يشكلون فيها رابع أكبر جماعة عرقية وثالث أكبر أقلية [المترجم].

الجدول رقم (٤,٤) .واردات الفضة الصينية والهندية إبان الفترة ١٥٥٠–١٦٤٥ (المتوسطات السنوية بالأطنان).

	(أ) الواردات الصينية	
المصدر والناقلون	١٦٠٠-١٥٥٠	١٦٤٥-١٦٠١
اليابان		
البرتغاليون	١٨.٤ -١٤.٨	١٤.٤
الصينيون	٩.٠	١٣.٣
"سفن الختم القرمزي"	٠.٠	١٨.٧
الهولنديون	٠.٠	٧.٦
المهربون	؟	؟
الإجمالي الفرعي	+٢٧.٤-٢٣.٨	٥٤.٠
(تقدير ياماورا وكاميكي)	٣٩.٠-٢٧.٠	١٦٦.٧-١٣٣.٣
العالم الجديد/الفلبين		
الصينيون	١١.٧	١٣.٨
البرتغاليون	٠.٠	١.٧
المهربون	؟	٢٢.٩
الإجمالي الفرعي	١١.٧	٣٨.٣
(تقدير ياماورا وكاميكي)	٨.٤	٢٠.٠
المحيط الهندي/أوروبا	١٨.٩	٧.٦
الإجمالي	+٤٦.٧ -٤٣.١	+١١١.٣
(تقدير ياماورا وكاميكي)	٤٧.٤ -٣٥.٤	١٨٦.٧ -١٥٣.٣
	(ب) الواردات الهندية	
المصدر	١٦٠٢-١٥٨٨	١٦٤٥-١٦٣٠ ١٦٨٥-١٦٧٩
الخليج العربي	٢٧.٨	٢٥ ٣٠
أصفهان- أكرة	١٠	٥ ١٠
البحر الأحمر	٧٥	٤٠ ٥٦
البرتغاليون	١١.٢	٣ ٠
الإنجليز	٠	٥.٢ ٢٥.١
الهولنديون	٠	٦.٦ ٩.٧
الإجمالي	١٢٤	٨٤.٨ ١٣٠.٨

المصدر : von Glahn (1996b, table 13, p. 140) and Haider (1996, table 9, p. 323)

لكن لماذا كانت الصين تستورد هذا القدر الكبير من الفضة؟ تتمثل الإجابة المباشرة في القيمة العالية التي يضفيها الصينيون على الفضة مقارنة بالذهب، كما لاحظ كثير من المعلقين المعاصرين، وهذه الإجابة تؤكدها النسبة المنخفضة ٥ : ١ للسعر النسبي للوزن نفسه من المعدنين، في مقابل نحو ١٢ : ١ في أوروبا. ومن الطبيعي أن يؤدي ذلك إلى تدفق الفضة إلى الصين. لكن على المستوى الأعمق، كان السعر المرتفع للفضة في الصين ناتجاً عن محدودية الإنتاج المحلي والطلب القوي على سبائك الفضة كوسيط للتبادل ودفع الضرائب بسبب انهيار العملة الورقية والعملة البرونزية إبان عهد إمبراطورية مينغ[١٧٤]. وقد دفع ذلك القطاع الخاص والحكومة نفسها للاعتماد على نحو متزايد على سبائك الفضة في كل المعاملات، فيما استلزمت ندرة الإنتاج المحلي بدورها ضرورة استيراد معظم الفضة. وتزامن الطلب الصيني المتصاعد على الفضة مع العرض المتنامي في الأمريكتين واليابان، ولذلك كانت التجارة واسعة النطاق نتيجة حتمية.

دفع الاعتماد الصيني على المصادر الأجنبية للفضة بعض الدارسين البارزين إلى الذهاب إلى أن تراجعاً خارجياً مفاجئاً وحاداً في واردات الفضة كان المسؤول عن انهيار سلالة مينغ في العام ١٦٤٤ وحلول سلالة مانشو تشينغ التي دامت حتى العام ١٩١١ محلها[١٧٥]. ووفقاً لهذه الرؤية للأحداث، فقد نتج سقوط سلالة مينغ عن "أزمة القرن السابع عشر" العالمية التي قابلناها آنفاً. تذهب هذه الحجة- بإيجاز- إلى أن النظام أصبح يعتمد بشدة على واردات الفضة كأساس لنظامه النقدي والمالي لدرجة أن الانخفاض المفاجئ في الواردات بسبب طرد شوغونية توكوغاوا للبرتغاليين وحظر الصادرات اليابانية المرخصة إلى الصين وما رافق ذلك من انقطاع لتدفق فضة العالم الجديد إلى مانيلا أدى إلى أزمة مالية حادة. وأدى التراجع في الدخل وبالتالي الإنفاق العسكري، فضلاً عن السخط الريفي على الإجراءات المتخذة للتعويض عن نقص الدخل، إلى تمكين سلالة مانشو من إسقاط سلالة مينغ. تنطوي هذه الفرضية على المستوى النظري على المغالطة التي يقع فيها المؤرخون عادة حين يستخدمون النظرية الكمية للنقود، وهي تحديداً خلط دور المخزون النقدي باعتباره المحدد الأساسي لمستويات الأسعار

والدخل الاسمي مع تدفق واردات الفضة وهي مجرد زيادة على هذا المخزون. وقد تعرضت الفرضية القائلة بأن نقص الفضة هو الذي أدى إلى سقوط إمبراطورية مينغ للتفنيد على المستوى التجريبي الأساسي من جانب مالوغني وشيا Maloughney and Xia وفون جيلان[١٧٦]. فلم يحدث تراجع في إجمالي واردات الفضة قبل العام ١٦٤٤، لأن طرد البرتغاليين من ناجازاكي عوضت عنه تماماً الزيادات في الواردات من جانب التجار الهولنديين والصينيين المحليين، وفي حالة مانيلا عوضت الإمدادات غير الرسمية عن التراجع في الإمدادات المرخصة من الدولة.

وبعيداً عن الصين، كانت الهند المغولية البالوعة الآسيوية الكبرى الأخرى للفضة الأمريكية في هذه الفترة. يقدم نجف حيدر Najaf Haider تحليلاً كمياً قيّماً لمصادر واردات الفضة للإمبراطورية المغولية، وهو التحليل الذي استخدمناه في المجموعة (ب) بالجدول رقم(٤.٤)[١٧٧]. فنتيجة لندرة البيانات، يقدم حيدر تقديرات مفصلة لثلاث فترات فرعية فقط: ١٥٨٨-١٦٠٢ و١٦٣٠-١٦٤٥ و١٦٧٩-١٦٨٥. بالنسبة للفترة الأولى يقدّر حيدر تدفقاً سنوياً قدره مئة وأربعة وعشرون طناً، كان أكثر من نصفها يأتي من البحر الأحمر من المقاطعات العثمانية والصفوية، وكان الربع تقريباً يأتي من الخليج العربي (ثلثا الاثنين والأربعين طناً تقريباً التي كانت تصدّر من ميناء هرمز سنويا)، فيما كان الباقي يأتي عبر الطريق البري من إيران إلى أكرة عبر قندهار وعبر رأس الرجاء الصالح من خلال البرتغاليين. وانخفضت الواردات بنحو الثلث إبان الفترة التالية ١٦٣٠-١٦٤٥، مع انخفاض تدفقات البحر الأحمر إلى النصف تقريباً. وشهدت الفترة الثالثة ٦٧٩-١٦٨٥ تحسناً، إذ ارتفع متوسط التدفق السنوي إلى مئة وواحد وثلاثين طناً، مع زيادة الحصة التي تنقلها الشركتان الهولندية والإنجليزية وتراجع حصة البرتغاليين. وعلى ذلك يبدو أن الإمبراطورية المغولية كانت تستورد نحو مئة طن من الفضة سنوياً في تلك الفترة، مع أن هذه الكمية كانت تشهد تقلبات حادة. وبذلك كان إجمالي واردات الهند أكبر كثيراً من واردات الصين في أواخر القرن السادس عشر، ونفس حجم الواردات الصينية في أوائل القرن السابع عشر. لكن لا بد

أن ننبّه إلى أن هذه الأرقام للاستيراد الهندي إجمالية وغير صافية، لأن الفضة الهندية كانت تُنقَل أيضاً إلى الشرق وينتهي بها المطاف إلى الصين.

يوجز الشكل رقم (٤.٧) الوضعية الحالية لمعرفتنا حول تدفق الفضة العابر للقارات، كما مسحها باحترافية جان دي فريز[١٧٨]. يعيد الشكل إنتاج مخططي التدفق اللذين قدمهما دي فريز لإنتاج المعادن النفيسة وتجارتها وامتصاصها إبان الفترتين ١٦٠٠-١٦٥٠ و١٧٢٥-١٧٥٠. يقبل دي فريز أرقام باريت للإنتاج والتصدير الأمريكيين إلى أوروبا، وبيانات أتمان للصادرات الأوروبية (التي ربما قللت التقديرات كما رأينا)، وتقديرات فون جيلان لصادرات الفضة اليابانية. لكنه في المقابل، يشكّ في القيم النسبية لتقديرات تيباسك وفلين وجيرالديز للتدفقات عبر الفلبين. وتُحسَب بيانات امتصاص الفضة في جنوب وشرق آسيا على أنها تساوي مجموع التدفق من اليابان ومن الفلبين ومن أوروبا عن طريق رأس الرجاء الصالح، وهو يساوي ما بين واحد وتسعين ومئة وتسعة وعشرين طناً سنوياً إبان الفترة ١٦٠٠-١٦٥٠[٨٣].

يتضح من الشكل أنه في النصف الأول من القرن السابع عشر كان التدفق حول رأس الرجاء الصالح يشكل حصة صغيرة نسبياً من التدفق الكلي، حيث كان أقل من ٦٪ من الواردات الأوروبية من أمريكا، أو ٤٪ فقط من الإنتاج الأمريكي. وكان تدفق الفضة من أوروبا الغربية إلى المشرق أكثر من ضعف تلك النسبة، وكان التدفق إلى البلطيق أكثر من ثلاثة أضعاف تلك النسبة. وكان تدفق الفضة حول رأس الرجاء الصالح أدنى أيضاً من صادرات الفضة المباشرة إلى مانيلا، أي أقل من ثلث الحجم لو قبلنا تقدير فلين وجيرالديز. على أن ذلك يتفق مع الانتعاش الذي حدث في آخر القرن السادس عشر لطرق التجارة البرية القديمة الذي أشرنا إليه في موضع سابق. ويوضح الشكل أيضاً مدى إسهام الفضة اليابانية في تيسير التجارة الأوروبية مع الصين، حيث كان تدفق الفضة اليابانية إلى الصين نحو أربعة أضعاف الصادرات الأوروبية عن طريق

(٨٣) لاحظ مع ذلك أنه لو كانت البيانات الهندية في الجدول رقم (٤.٤) صحيحة، فلا بد أن امتصاص جنوب وشرق آسيا كان أكبر من ذلك بكثير.

رأس الرجاء الصالح. يعبر دي فريز عن ذلك بالقول بأن "التجارة الآسيوية البينية أنتجت اقتصادات كبرى 'بالتكلفة النقدية' الأوروبية للسلع الآسيوية"[١٧٩].

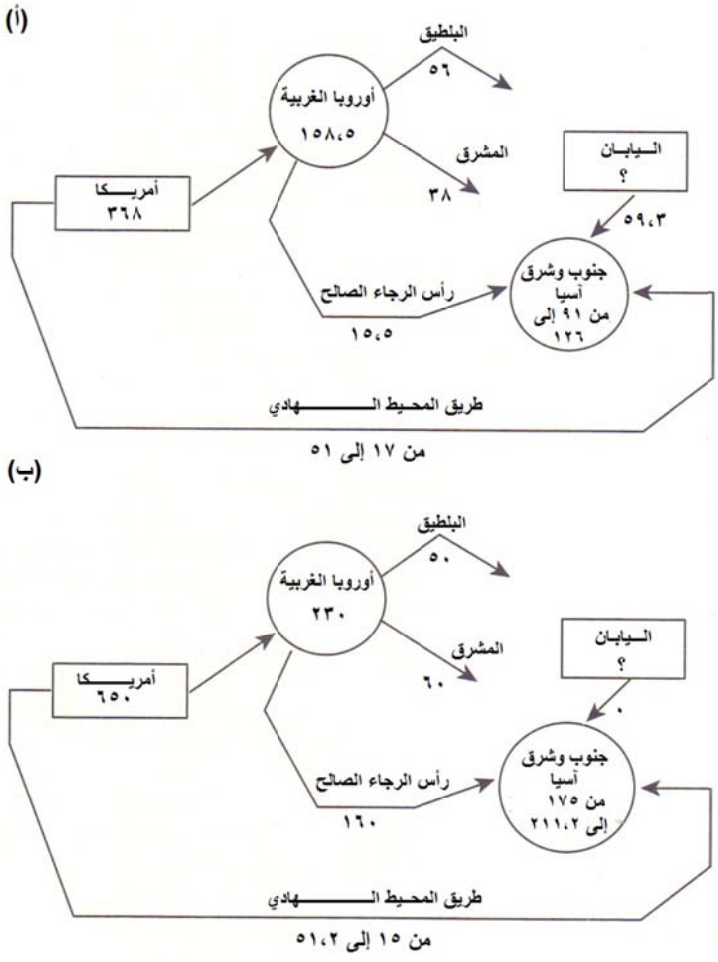

الشكل رقم (٤,٧) تدفق الفضة العابر للقارات في أوائل القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر (بالكيلوغرام سنويا): (أ) **الفترة ١٦٠٠–١٦٥٠**، (ب) **الفترة ١٧٢٥–١٧٥٠**

ملحوظة: تشير الأرقام الواردة في مستطيلات (المناطق المصدّرة) إلى الإنتاج، فيما تشير الأرقام الواردة في دوائر (المناطق المستوّردة) إلى الامتصاص المحلي.

المصدر: de Vries (2003, figure 2.3a,b)

يتضح من الشكل أنه في النصف الأول من القرن السابع عشر كان التدفق حول رأس الرجاء الصالح يشكل حصة صغيرة نسبياً من التدفق الكلي، حيث كان أقل من ٦٪ من الواردات الأوروبية من أمريكا، أو ٤٪ فقط من الإنتاج الأمريكي. وكان تدفق الفضة من أوروبا الغربية إلى المشرق أكثر من ضعف تلك النسبة، وكان التدفق إلى البلطيق أكثر من ثلاثة أضعاف تلك النسبة. وكان تدفق الفضة حول رأس الرجاء الصالح أدنى أيضاً من صادرات الفضة المباشرة إلى مانيلا، أي أقل من ثلث الحجم لو قبلنا تقدير فلين وجيرالديز. على أن ذلك يتفق مع الانتعاش الذي حدث في آخر القرن السادس عشر لطرق التجارة البرية القديمة الذي أشرنا إليه في موضع سابق. ويوضح الشكل أيضاً مدى إسهام الفضة اليابانية في تيسير التجارة الأوروبية مع الصين، حيث كان تدفق الفضة اليابانية إلى الصين نحو أربعة أضعاف الصادرات الأوروبية عن طريق رأس الرجاء الصالح. يعبر دي فريز عن ذلك بالقول بأن "التجارة الآسيوية البينية أنتجت اقتصادات كبرى 'بالتكلفة النقدية' الأوروبية للسلع الآسيوية"[١٧٩].

يبيّن الشكل أيضاً أنه في الربع الثاني من القرن الثامن عشر، حين كان طريق رأس الرجاء الصالح في ذروته، كانت الرؤية البسيطة لانتقال الفضة الأمريكية أولاً إلى أوروبا ثم إلى آسيا عن طريق رأس الرجاء الصالح أقرب إلى الحقيقة منها إبان القرن السابع عشر. ففي ذلك الوقت كانت ثلاثة أرباع الفضة الأمريكية تُنقَل إلى أوروبا. ومن ذلك المجموع، كان الثلث تقريباً ينقل إلى آسيا عن طريق رأس الرجاء الصالح، أي أكثر بنحو ٥٠٪ مما كان يصدّر من أوروبا الغربية إلى البلطيق والمشرق معاً. وفي هذه الفترة عينها هيمنت الشركات التجارية الأوروبية الكبرى على التجارة الأوروبية-الآسيوية، لدرجة أنها أصبحت المصدر الرئيس للفضة لجنوب وشرق آسيا (ظل التدفق عبر مانيلا ثابتاً تقريباً منذ أوائل القرن السابع عشر، وتوقف التدفق من اليابان كليا).

ماذا كانت التأثيرات الاقتصادية لهذه التدفقات الهائلة للفضة؟ نود أن نميّز هنا بين التأثيرات على الطرفين الغربي والشرقي لليابسة الأوراسية. لقد أوضحت المناقشة السابقة وجود فرق حاسم بين طبيعة واردات الفضة في المنطقتين. فيمكن اعتبار واردات الفضة في أوروبا الغربية صدمة خارجية رفعت عرض الفضة المحلي، وبالتالي العرض

النقدي المحلي. بينما في شرق آسيا، كانت واردات الفضة استجابة داخلية لفروق الأسعار، ويمكن بالتالي أن نتوقع لها تأثيرات اقتصادية مختلفة تماماً. سنبحث فيما يلي النتائج الاقتصادية لفضة العالم الجديد أولاً على أوروبا، ثم على المناطق المستوْردة الرئيسة (الصين والهند)، وأخيراً على المنطقة الوسطى التي تتألف من الإمبراطوريتين العثمانية والفارسية وروسيا.

في أوروبا، وتحديداً في أيبيريا التي تلقت الصدمة الأولى، تمثل التأثير المتوقع لواردات الفضة من العالم الجديد في خفض السعر النسبي للفضة، وهو ما يعني رفع المستوى العام للأسعار. ووفقاً للمقاربة النقدية لتوازن المدفوعات، فمن المؤكد أن العملية سارت على النحو التالي[١٨٠]. أولاً، زاد العرض النقدي الأيبيري من مصدر خارجي، ما رفع أسعار المواد الاستهلاكية الأيبيرية. وبعد ذلك، فمن المؤكد أن التجارة العابرة للحدود في السلع أدت إلى رفع الأسعار في الأماكن الأخرى بأوروبا الغربية، وبخاصة في الدول المجاورة. وأخيراً، من المؤكد أن هذه الزيادة في الأسعار قد رفعت الدخول الاسمية في الأماكن الأخرى، وفي أثناء ذلك رفعت الطلب على النقود الاسمية وحفزّت واردات الفضة من أيبيريا (لأن النقد في هذا النموذج يتدفق دائماً إلى الأماكن الذي يكون عليه طلب فيها). لو حدث ذلك في العالم الحديث المعولم الذي أنجز الاندماج الكامل لأسواق السلع، لحدثت عملية نقل التضخم من هذا النوع بسرعة كبيرة، ولبقيت مستويات الأسعار متساوية تقريباً عبر أوروبا. أما في سياق أوروبا إبان العصر الحديث المبكر التي كانت أسواق السلع فيها مرتبطة ببعضها، لكن التجارة كانت لا تزال مُكْلِفة جداً، فمن المؤكد أن هذه العملية استغرقت وقتاً أطول، ويمكن أن نتوقع حدوث فجوات كبيرة ودائمة في الأسعار بين أيبيريا والمناطق البعدة عنها. ويجد دوغلاس فيشر Douglas Fisher أدلة اقتصادية معقولة تربط زيادات الأسعار الأوروبية في هذه الفترة بتدفق فضة العالم الجديد من خلال المقاربة النقدية لآلية توازن المدفوعات التي أشرنا إليها قبل قليل[١٨١].

أما في شرق آسيا، فقد تدفقت الفضة في الاقتصاد من الداخل، لتلبية الطلب المتنامي على الفضة الذي يرتبط في الصين باستخدام سبائك الفضة باعتبارها وسيط

التبادل الرئيس. وقد اشتد هذا الطلب بفعل التأثير السكاني "للتبادل الماجلاني" الذي رأينا أنه أدى إلى نمو سكان الصين إبان القرن السادس عشر، وإلى توسع الاقتصاد وزيادة الطلب على النقود. وأخيراً، شهد القرن السادس عشر "تقدماً سريعاً في تتجير الاقتصاد الصيني الداخلي"[١٨٢] الذي تطلب هو الآخر زيادة العرض النقدي. ولذلك تمثل دور الفضة المستوْردة في توفير السيولة لتوسع اقتصادي حقيقي، ومن منظور نسخة كامبردج الشهيرة من نظرية الكم التي يكون العرض النقدي "ن" فيها مساوياً "ر س د"، يحدث الارتفاع في "ن" بفعل زيادة الدخل "د"، وليس بفعل ظاهرة خارجية، وطالما أن دور العرض النقدي المتنامي في الاقتصاد سلبي أو تيسيري، فمن المفترض أنه يرفع مؤشر درجة "التحول النقدي" لهذا الاقتصاد "ر"، وكذلك الدخل "د"، وليس الأسعار "س". واتفاقاً مع ذلك، لا نجد أدلة كثيرة على ارتفاع مستوى الأسعار في الصين في تلك الفترة، وفي حين ارتفعت أسعار الأرز ببطء شديد خلال القرن السادس عشر، يبدو أن أسعار الأرض انخفضت (على الرغم من أن أسعار الأرز ارتفعت كثيراً في أوائل القرن السابع عشر قبل أن تتراجع ثانية بعد العام ١٦٦٠ أو نحوه)[١٨٣].

وكما في حالة الصين، كانت الفضة تستخدم في الهند بالدرجة الأولى للأغراض النقدية. فيقول عرفان حبيب Irfan Habib إن "الإمبراطورية المغولية كانت تفخر بإحدى أجود العملات المسكوكة في العالم المعاصر، وهي عملة مكونة من ثلاثة معادن تميزت بوحدة ونقاء كبيرين، وكانت الروبية الفضية العملة الأساسية"[١٨٤]. وكانت العملات الذهبية نادرة، وتستخدم في الغالب للأغراض الطقوسية، فيما كانت العملات النحاسية تستخدم للمعاملات الصغيرة. وكانت الفضة تُسكّ بحرية تامة في دور ضرب العملة المغولية الكثيرة في مقابل رسوم قليلة، وكانت قيمة الروبية تحتوي فرقاً طفيفاً فوق محتوى الفضة فيها، ما عكس الثقة في نقائها. ونظراً لأن الهند لم تكن تمتلك موارد محلية للفضة في تلك الفترة، فمن المفترض أن الواردات كانت الأساس الوحيد للعملة. ومن المعتقد أيضاً أن كل الفضة المستوّردة تقريباً كانت تُسكّ في شكل عملة، فيما كان الذهب يكتنز في شكل سبائك. وفي عهد الإمبراطور أكبر Akbar (١٥٥٦–١٦٠٥) حلت العملات الفضية محل العملات النحاسية في المناطق الحضرية ولاحقاً في

المناطق الريفية، وكانت الدولة تستخدمها لدفع رواتب الموظفين والضباط العسكريين (بدلاً من منح الأراضي)، وفي الوقت نفسه كانت عائدات الأرض تُدفَع نقداً وليس سلعاً[١٨٥]. ولذلك كانت الفضة الأساس للطابع النقدي المتزايد للاقتصاد المغولي. وهذا الطابع النقدي يعكس- بلا شك - الاندماج الاقتصادي المتزايد للإمبراطورية، وبخاصة المنطقة الساحلية الغربية التجارية مع المنطقة الداخلية الزراعية في الوسط والشمال.

في دراسة رائدة، استخدمت عزيزة حسن Aziza Hasan العملات المغولية الباقية في مجموعات المتاحف الكبرى كأساس لتقدير مؤشر ناتج العملة[١٨٦]. تضاعف مؤشر حسن ثلاثة أضعاف من نحو العام ١٥٩٠ إلى العام ١٦٤٠، ثم هبط بعد ذلك حتى نحو العام ١٦٨٥، لكنه مع ذلك ظل ضعف مستواه في العام ١٥٩٠. كان الهدف الرئيس لدراسة عزيزة حسن هو البحث عن أدلة حول وجود ارتباطات بين ناتج العملة وتدفق الفضة الأمريكية إلى أوروبا. وحين قارنت عزيزة حسن حركات مؤشرها مع أرقام هاملتون لواردات الفضة إلى إسبانيا، وجدت تطابقاً، مع تأخر من عشرة إلى عشرين عاماً، و"لذلك كانت التقلبات في حجم واردات الفضة إلى إسبانيا تنعكس كلياً على الواردات الهندية من الفضة وناتج دور سك العملة المغولية". وفي إسهام لاحق مهم، أكدت شيرين موسوي Shireen Moosvi الارتفاع في ناتج العملة، وأوضحت حساباتها أنه بينما كان الناتج السنوي الفرنسي من الفضة المسكوكة زهاء خمسة وسبعين طناً إبان الفترة ١٦٣١-١٦٦٠، كان المتوسط السنوي المغولي من العام ١٥٥٦ إلى العام ١٧٠٥ ضعف ذلك المستوى، أي زهاء مئة واثنين وخمسين طناً، وهو مستوى ليس مرتفعاً على الإطلاق بالنظر إلى أن عدد سكان الهند كان نحو مئة وثلاثين مليوناً، مقارنة بنحو عشرين مليوناً في فرنسا[١٨٧].

مؤدى ما سبق أن الفضة كانت لها تأثيرات مختلفة تماماً في أوروبا والصين والهند. ففي أوروبا أدت إلى التضخم، بينما أدت في جنوب وشرق آسيا إلى دعم النمو وتحويل الاقتصادات إلى النقد وتتجيرها على نحو متزايد. لكن ماذا عن المناطق التي تقع بين هذين الطرفين التي كانت الفضة تنتقل خلالها عبر طرق التجارة التقليدية بين أوروبا

وآسيا؟ هل أدت الفضة إلى التضخم، أم يسّرت التتجير، أم كانت تمر فحسب عبر هذه الأراضي دون أن تترك أثراً محدداً على اقتصاداتها؟ نختتم هذا القسم بالنظر إلى تأثير الفضة على الوسطاء الثلاثة الأساسيين: بلاد فارس والإمبراطورية العثمانية وروسيا.

يكتسب دور إيران في الاقتصاد العالمي في تلك الفترة أهمية خاصة. لقد تأسست الدولة الصفوية على يد الشاه الشاب والكاريزمي إسماعيل (١٥٠١-١٥٢٤) في بداية الفترة، وبلغت أوجها في عهد الشاه عباس الأول (١٥٨٨-١٦٢٩). والصفويون هم الذين أسسوا المذهب الشيعي في إيران ووضعوا الأساس للدولة والأمة الإيرانية الحديثتين بعد قرون من هيمنة الحكام العرب والمغول والأتراك. كان موقع إيران المتوسط على طرق التجارة الرئيسة بين الشرق والغرب والشمال الجنوب في غرب أوراسيا يعني أنها مفترق طرق لتدفق السلع والمعادن النفيسة في كل الاتجاهات. كان الحرير الطبيعي المنتج محلياً يغطي الاحتياجات الفارسية لنسج الأقمشة المطرزة وأقمشة التفتة، وأيضاً كما رأينا آنفاً احتياجات صناعات الحرير المزدهرة بتركيا وإيطاليا. وقد أعطى ذلك لإيران توازناً تجارياً مواتياً مع الغرب، استنزفه جزئياً عجزها مع الهند وجزر الهند الشرقية الناتج عن واردات المنسوجات القطنية والنيلة والسكر والتوابل، على الرغم من التصدير المربح لخيول سلاح الفرسان والأصباغ لصناعة المنسوجات القطنية الهندية والأنواع المختلفة من البندق والفاكهة وغيرها من الأطعمة المعالجة. ولعل هذه السمة الدائمة للتجارة الإيرانية، أي الفائض التجاري مع الغرب الذي يوازِنه جزئياً عجز مع الشرق، هي التي دفعت ساكناً أوروبياً بارزاً في أصفهان في العام ١٦٦٠، هو رجل الدين الفرنسي رافائيل دو مانز Raphael du Mans إلى تقديم الوصف الشهير التالي لإيران الذي نقلناه عن حيدر[١٨٨]:

> إن بلاد فارس تشبه فندقاً أو نزلاً كبيراً له بابان فقط، تدخل الفضة من الباب المقابل لتركيا... أما باب الخروج فهو بندر عباس أو غومبرون Gombroon على الخليج العربي إلى جزر الهند الشرقية، وسورات Surat تحديداً، التي تُفرَّغ فيها فضة العالم كلها ولا تخرج منها، كأنها سقطت في هاوية.

على أن تحقيق فارس لفائض تجاري في منتصف القرن السابع عشر[١٨٩] يكشف أنها كانت تحتفظ ببعض الفضة على الأقل داخل إمبراطوريتها.

كان اقتصاد إيران، وبخاصة في عهد الشاه عباس، مزيجاً مثيراً من قوى السوق، وهو ما عكس نشاطات طبقة تجارية متطورة من الفرس المحليين والهنود، والأبرز بين الجميع الأرمن، في إطار تدخل نشط وشامل من الدولة مدفوعاً بالتعطش إلى الدخل ورغبة مركنتيلية قوية في تحسين الثروة والقوة الوطنيتين[١٩٠]. أعيد توطين جماعة التجار الأرمن القادمين من جلفا Julfa في مكان خاص عُرِف باسم "جلفا الجديدة" بالعاصمة الجديدة الرائعة أصفهان، وأعطيت لهم امتيازات واسعة في مقابل خدماتهم للدولة في المجالات التجارية والمالية والدبلوماسية، وهو الدور الذي استمر حتى الأزمنة الحديثة. نفذ الشاه عباس ما نسميه الآن مشروعات "إحلال الواردات" لإنتاج النيلة والقطن والأرز، حتى أنه حاول إيقاف استنزاف النقد بسبب الحج إلى مكة الخاضعة للسيادة العثمانية بإنشاء موقع شيعي منافس لتبجيل الإمام الرضا في مشهد. وأنشا مصانع ملكية لإنتاج المنسوجات الحريرية وغيرها من المنسوجات في معظم البلدات الرئيسة، واتخذ إجراءات لتحسين البنية التحتية للنقل والاتصال. يشير ذلك كله إلى اقتصاد فارسي أخذ في التوسع والتحول إلى التتجير أكثر فأكثر، وهو ما يكشف بدوره أن بلاد فارس كانت تحتفظ فعلاً ببعض الفضة في تلك الفترة لتيسير تلك الأعمال.

ذكرنا في موضعٍ سابق أن الخصومة المريرة بين الصفويين الشيعة والعثمانيين السُنة كانت تؤدي كثيراً إلى صعوبات في تصدير السلع الحريرية وغيرها من إيران إلى الغرب خلال المحطة التجارية السورية الرئيسة بمدينة حلب. ولذلك بذل الصفويون جهوداً كبيرة لتطوير طرق بديلة إلى الأسواق الغربية، تمثل أحدها في طريق اصطراخان عبر نهر الفولغا إلى البلطيق، وتمثل طريق آخر في الطريق البحري من الخليج العربي وحول رأس الرجاء الصالح بناءً على تشجيع من شركتي الهند الشرقية الإنجليزية والهولندية. ومن أجل تحقيق هذه الغاية، قدم أسطول إنجليزي المساعدة لعباس للاستيلاء على هرمز من البرتغاليين في العام ١٦٢٢، بينما غض الهولنديون الطرف عن ذلك. وفي النهاية تحسنت العلاقات مع العثمانيين إدراكاً من الطرفين لأهمية

استمرار تدفق الحرير إلى الغرب، وهكذا فشل الطريق البحري وطريق الفولغا في النهاية في أخذ مكان الطريق الغربي إلى المشرق.

كانت الإمبراطورية العثمانية هي الأخرى تقع على تقاطع الطرق بين الشرق والغرب في الدوران العالمي للفضة الذي أطلقته رحلات الاستكشاف. وكان ذلك نفسه، كما يرى عمر لطفي باركان Omer Lutfi Barkan[١٩١]، هو المسؤول عن التراجع والانهيار النهائي للنظام الاقتصادي والاجتماعي والسياسي العثماني الذي كان مستقراً قبل ذلك. فالنظام الاقتصادي العثماني الممتد عبر الأناضول والبلقان ومصر وشمال أفريقيا كان في رأي باركان نظاماً "إمبراطورياً مكتفياً ذاتياً". لكن بعد رحلات الاستكشاف، تقوّض هذا النظام بفعل توسع الاقتصاد الأطلسي الأوروبي. واتفاقاً مع المقاربة النقدية لتوازن المدفوعات، كان الارتفاع في الأسعار الأوروبية يعني أن سلعاً مثل "القمح والنحاس والصوف وما شابهها تُمتَص من الأسواق العثمانية"، ما دمر الصناعات التقليدية وتسبب في الإزاحة الاجتماعية بين الطبقات الحرفية وفي الريف، فضلاً عن الاضطراب والاستياء في صفوف الوحدات العسكرية الرئيسة. ولذلك، فلو كانت الإمبراطورية العثمانية "رجل أوروبا المريض" إبان القرن التاسع عشر، فإن ذلك المرض لم ينتج عن الثورة الصناعية المعاصرة، كما يدفع باركان، بل عن ثورة الأسعار إبان القرن السادس عشر التي أحدثت التذمر طويل المدى.

حظي مقال باركان المهم مؤخراً بمراجعة محترمة، وإن كانت نقدية من جانب شوكت باموك Sevket Pamuk في كتابه المرجعي حول التاريخ النقدي العثماني[١٩٢]. وجد باموك ارتفاعات في الأسعار أصغر مما وجد باركان، فالأسعار بقيمة الفضة ارتفعت إلى أعلى مستوى لها، بنحو ٨٠-١٠٠٪ في الربع الأول من القرن السابع عشر أعلى منها في العام ١٤٩٠، في حين يذكر باركان أن ارتفاع الأسعار بلغ ١٦٥٪ في العام ١٦٠٥ أعلى منها في العام ١٤٩٠. ثم انخفضت الأسعار بقيمة الفضة وفقاً لباموك، حتى أصبحت في العام ١٧٠٠ أعلى بنحو ٢٠٪ فقط منها في العام ١٤٩٠. ويفند باموك أيضاً فرضية أن ثورة الأسعار كانت المسؤولة عن الصعوبات المالية والعسكرية والصناعية التي كبّلت الإمبراطورية، مشدّداً على دور عوامل أخرى مثل

الزيادة الواضحة في الحرب على جبهات كثيرة وما صاحب ذلك من أعباء عسكرية ومالية، فضلاً عن الطابع التقليدي للتنظيم الزراعي والصناعي الذي جعل هذين القطاعين غير قادرين على التكيف مع التغيير. ومع أن "الشرق الأوسط كان من عدة نواح مجرد منطقة عبور لتدفق السبائك العابرة للقارات"[١٩٣]، تكشف الأدلة أن الأسعار هناك ارتفعت إبان القرن السادس عشر، على الرغم من وجود أدلة قوية أيضاً على أن الاقتصاد العثماني تحول أكثر فأكثر إلى الحالة النقدية في تلك الفترة وأن "الطلب على النقود تنامى، لكن هذا الطلب كان يمكن تلبيته بالعرض المتزايد من الفضة".

وبناءً على ما تقدم، فإن الفضة أثرت على الإمبراطوريتين العثمانية والفارسية برفع الأسعار في الأولى، وبالتزامن مع ذلك (وربما بتيسير منه) زيادة النشاط التجاري في الإمبراطوريتين. وحيث رأينا أنه كانت هناك تجارة نشطة في شمال شرق أوروبا في تلك الفترة، فلا يفاجئنا على الإطلاق أن يصل تدفق الفضة حتى بولندا وروسيا والمناطق البلطيقية، على الرغم من بعدها عن طرق التجارة المنتظمة بين الشرق والغرب. وفي ذلك تقول ماريان مالويست Marian Malowist إن "وجهة النظر القديمة بأن تجارة البلطيق فقدت أهميتها في عصر الاكتشافات الكبرى، تراجعت منذ فترة طويلة. فقد أصبحنا نعرف الآن، على العكس من ذلك، أن دول البلطيق أصبحت مصدراً للمواد الخام الغربية وسوقاً لصادرات الغرب، ما أسهم في تحولها الصناعي السريع نسبياً"[١٩٤]. وقد رأينا أيضاً أن تصديراً صافياً للفضة من الغرب إلى الشرق حدث في هذا العصر. ومع أن بعضه كان يُنقَل شرقاً إلى بلاد فارس والأراضي العثمانية، فقد بقي في هذه البلاد ما يكفي للتحول النقدي للاقتصادات المحلية كما وثق بلوم Blum[١٩٥].

بإيجاز، كان لاكتشاف فضة العالم الجديد تأثير كبير على اقتصادات أوراسيا، حيث دفع زيادات في الأسعار، ويسّر التحول النقدي والتتجير. وتمثلت الوظيفة الأساسية للفضة في زيادة التجارة الأوراسية الداخلية، داخل الاقتصادات "الوطنية" وبينها، وهذا ليس أمراً مستغرباً بالنظر إلى وظيفة وسيط التبادل التي تؤديها الفضة. وتقدم الوفرة المتزايدة للفضة وميلها إلى التدفق شرقاً استجابة للأسعار التي هي أعلى

طريقة لفهم إحياء التجارة البرية بين آسيا وأوروبا في أواخر القرن السادس عشر، وهذه التجارة المتزايدة ذاتها أفادت روسيا وبلاد فارس والإمبراطورية العثمانية، حتى مع غياب التحول النقدي في تلك المناطق. والعالم الجديد – بهذه الطريقة – قرّب أوراسيا من بعضها. ولعبت الفضة أيضاً دوراً حاسماً في تسهيل نشاطات الشركات التجارية الأوروبية في آسيا، التي كانت لها نتائج سياسية بالغة الأهمية على جنوب شرق آسيا – كما رأينا– وكذلك على الهند أيضاً– كما سنرى– في الفصل الخامس.

وأخيراً، فقد كان للعالم الجديد تأثير اقتصادي أكبر من ذلك بكثير على العالم القديم، بإدخال أشكال جديدة نوعياً من التجارة العابرة للقارات، حَفَّزتَها قبل أي شيء الأراضي الشاسعة بالأمريكتين. لكن لكي تنطلق هذه التجارة، كان على المستعمرين الأمريكيين أن يحلوا المشكلة الأساسية التي واجهتهم، وهي نقص العمالة الرخيصة، ومع أنهم – كما رأينا – عثروا فوراً على الحل لهذه المشكلة، متمثلاً في العبودية، فقد استغرق الأمر وقتاً لبناء الإطار المؤسسي اللازم لإمداد السوق الأوروبي بكفاءة.

تتضح نتائج ذلك في الشكل رقم (٤,٨) الذي يعرض الأسعار الحقيقية (المعدلة ضد التضخم بأسعار الجاودار) للفلفل والسكر في هولندا إبان القرنين السادس عشر والسابع عشر. إن الفارق بين السلسلتين مذهل فعلاً. فكما رأينا، بدأت أسعار الفلفل الحقيقية في الانخفاض بعد فترة قصيرة من رحلات الاستكشاف، واستقرت في النهاية عند مستوي منخفض تاريخياً في منتصف القرن السابع عشر. لكن أسعار السكر ارتفعت بشدة طوال القرن السادس عشر، ما يشير إلى أن صادرات السكر البرازيلية المتزايدة التي وثّقناها في موضع سابق لم تكن كافية لتلبية احتياجات السوق الأوروبي، ذلك لأن ندرة العمالة كانت لا تزال تقيّد مرونة العرض بالعالم الجديد. وتمثلت نتيجة ذلك في زيادة الحافز لدى المستوطنين لتزويد أوروبا بالسكر وغيره من "السلع الاستوائية"، وبالتالي زيادة الحافز لشحن مزيد من العبيد عبر المحيط الأطلسي. وإبان العقد الأخير من القرن السادس عشر أو

نحوه فقط ، بدا التوازن يتحول بشكل حاسم لمصلحة المستهلكين الأوروبيين (ويمكن أن نضيف أيضاً ضد الأفارقة التعساء الذين بيعوا عبيدا). ولذلك فبالقرب من نهاية القرن السادس عشر، ومع تحرك الهولنديين والإنجليز لترك بصمتهم على المحيط الهندي، كان عصر الفضة قد بدأ يفسح المجال لعصر السكر والعبيد، وبدأ المحيط الأطلسي يحل محل المحيط الهندي في الأهمية الاقتصادية، وبدأت التجارة المثلثية التي ستكون النقطة المحورية للفصل التالي، تبرز باعتبارها القوة الدافعة الأساسية للاقتصاد العالمي.

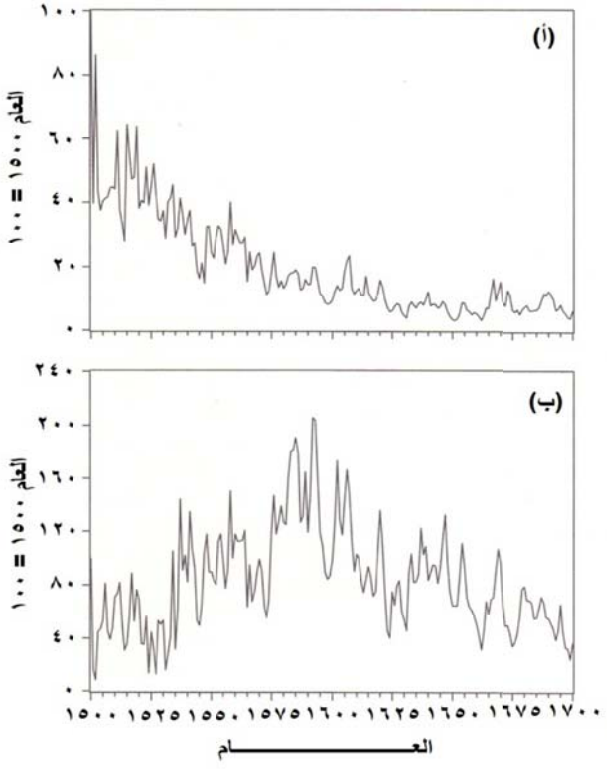

الشكل رقم (٤,٨). الأسعار الهولندية الحقيقية (أ) للفلفل، (ب) للسكر إبان الفترة ١٥٠٠–١٧٠٠ (العام ١٥٠٠ = ١٠٠)

المصدر : van Zanden (2005)

تزامنت فترة الانتقال الاقتصادي التدريجي المذكورة مع انتقال سياسي أيضاً. فقد كان منتصف القرن السابع عشر حداً فاصلاً رئيساً في تاريخ العصر الحديث المبكر. ففي أوروبا، انتهت حرب الثلاثين عاماً المدمرة والمعرقلة في العام ١٦٤٨ بسلام ويستفاليا الذي كان فاتحة لعصر جديد في العلاقات الدولية. وكانت روسيا توسع حدودها شرقاً في حزام الغابة السيبيرية ووصلت المحيط الهادي في العام ١٦٤٨، فيما كانت إمبراطورية مانشو تشينغ الصينية منهمكة في توسيع حدودها غرباً في آسيا الوسطى بعد أن أطاحت بسلالة مينغ في العام ١٦٤٤. وكانت اليابان تبدأ عزلتها الطويلة المضرة بكل المعاني عن بقية العالم في عهد شوغونية توكوغاوا. وكانت "إمبراطوريات البارود" الإسلامية[٨٤] تُظهِر بعض علامات الإجهاد والتوتر، لكنها كانت لا تزال قوية على الأرض. وفي جنوب شرق آسيا، كان الهولنديون يوسعون سيطرتهم على الأرخبيل الإندونيسي وسيلان بعد استيلائهم على مالاكا في العام ١٦٤١، فيما كانت بورما وسيام تقيمان مملكتين قويتين بمساعدة مرتزقة برتغاليين وتقنية عسكرية برتغالية.

بإيجاز، كانت الشبكة المتنامية للتجارة العالمية الرحم الذي تمخض في النهاية عن الاختراق الجذري نحو الحداثة، إذ لم يكن يبقى على الثورة الصناعية غير قرن أو أكثر قليلاً

(٨٤) أُطلِق على الإمبراطوريات الإسلامية العثمانية والصفوية والمغولية اسم إمبراطوريات البارود لأنها حققت نجاحات عسكرية كبيرة باستخدام الأسلحة النارية الجديدة، خاصة المدافع [المترجم].